2me Année, No. 74.

Lundi-3-12-1934

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع الساحة رقم ٣٩
بالقاهرة
تليفون رقم | ٤٢٣٩٠
| ٤٠٥٣٠

بدل الاشتراك عن سنة
مـ
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد

الأعلانات يتفق عليها مع الأدارة

العـدد ٧٤ « القاهرة فى يوم الاثنين ٢٥ شعبان سنة ١٣٥٣ — ٣ ديسمبر سنة ١٩٣٤ » السنة الثانية

فهرس العـدد

دارٌ تَبلَى ! ...

دارٌ تَبلَى ! وكانت إلى الأمس القريب دار الأمة ! عليها نزل وحى الوطنية ، ومنها انبعث صوت الحرية ، وفيها انبثق فجر النهضة ، وبها وُلِدَ معنى الاستقلال

كانت ملجأ الخلافة فى الآستانة ، ومفزع الخديوية فى القاهرة ، ومخافة الاستعمار فى لندن ، ومثابة الاسلام فى العالم كله ! ! تجمّعت فيها للأمة رغائب ، ونشأت بها للشباب آمال ، وخفقت عليها للجهاد (أَلوِية) ، وسمعت مصر فى أفنيتها للمرة الأولى أصوات بَنِيها الخُلَّص يهتفون باسمها ، ويهزجون بمجدها ، ويزفرون من الحفيظة لاستعبادها ، ويستنجزون الغاصب المحتلّ وعده الممطول وعهده الفاجر ! ! ثم كانت (عكاظَ) للبلاغة الخطابية ، و (فورُم) للمساجلة السياسية ، و (كعبةً) يتجه إليها أبرياء الصدر من مخامرة الوطن ، وأنقياء الصحيفة من ممالأة العدو

تلك هى دار اللواء ، ونادى مصطفى كامل !

تمر اليوم بمكانها من شارع (الدواوين) فتجد هذا الأثر الضخم والتاريخ الحافل تُعفّيه الأحداث والنوازل ! كأنها لم تكن

فى عهدها الدانى قلب مصر النابضَ ، وعزم نشئها الناهضَ ، ومنارة أمرها الهادية ! أتى عليها أَتِيُّ البِلى فنكَّر أعلامها وأَخْفَتَ صداها ! كأنها لم تنفض عن الوادى غبار الخمول ، ولم تمسح عن الأجفان فتور الوسن ! وكأن مصطفى لم يسجل على أركانها أول صيحة بالجلاء ، وأول رغبة فى الدستور ، وأول غضبة للحرية ! !

ولكن الزمن الدوار القهار يحطم كل ما برأ الله وصور الناس من شخص وشىء ، فلا يظهر على بأسه إلا الفكرة ، ولا يخلد على رغمه إلا العقيدة

***

ألا فاسلمى على رغم هذا البِلى يا دار ! فان لك فى كل قلب آيةً مسطورة ، وفى كل تاريخ صفحة منشورة ، وفى كل جيل نشيداً يعطف القلوب الى الحق ، ويَلفتُ العيون الى النور ، ويهدى النفوس الشاردة الى الغرض الأسمى والسبيل القَصْد

ومن الذى ينسى ومضة الروح الإلٰهى فى ذلك الجسد الضارع ، فيفور فورة الجبارين ، ويصمد صمود الرُّسل ، ويقوم فى وحدة النبى وإيمان الشهيد يجاهد الإشراك بمصر ، والكفران بالأمة ، ويقارع بالحجج الثائرة الملزمة طغيان انجلترا وهى يومئذ علة العلل ودولة الدول ؟

أم من الذى ينسى خفقة التضحية القدسية فى ذلك الشباب العليل ، فيحرك ساكن شعبه بوجيب قلبه ، ويضىء ظلام يومه بوميض روحه ، ويذكى خمود عزمه بحرارة دمه ، ثم يزهد فى المال والجاه والحكم زهادة الحكيم ، فيحيا للمبدأ والفكرة ، ويموت للقدوة والعبرة ؟

***

على إخلاص مصطفى وإيثار فريد وصدق سعد تسير اليوم هذه القافلة ! حتى إذا كذب الرائد ، ومكر الدليل ، وخامر الحادى ، انبلج فى جوانب الطريق شعاع من هذه الأرواح البرَّة ، فيجلو العمى ، ويكشف الضلال ، ويفضح المكيدة !

وقد ماتوا رضوان الله عليهم ميتة الأنبياء ، لا (عمائر) تحجب سماء المدن ، ولا (دوائر) تشغل أرض القرى ! لقد ملكوا وما تركوا ! إنما ورَّثونا حفظ الكرامة وإن أرهقنا الظلم ، وطلب الحرية وإن أجهدنا الطغيان ، ورعاية الحق وإن خدَعنا الباطل !

كانت قافلتنا تسير باسم الله يا دار ! تسير على ضوء من مبادئ الزعماء لا يخبو ولا ينكسر ، فأصبحنا ذات يوم وإذا سيرها يثقل ونظامها يضطرب ! فالتفتنا فاذا عصبة منا تسربلوا بالنار وتدرعوا بالحديد ، ثم ولَّوا وجوههم إلى الخلف ، وأخذوا بمؤخر القافلة جذباً وجراً ، حتى لتكاد عواتقهم تهى ، ومفاصلهم تنسرق ، وانبثَّ فى الركب دعاة الرجعية وسماسرة الطغيان ، يُلَبِّسون عليه الأمر ، ويوهمونه أن هؤلاء هم القادة ، وأن هذه هى الوجهة ! وعلى تلك الحال الأليمة لبثنا أربع سنين يتجاذبنا الوراء والأمام ، ويتنازعنا النور والظلام ، حتى ضعضع الصبر الأبىُّ وثاقة الطاغية فخرَّ صريعاً ليديه وفمه ! !

***

تقوض صرح الظلام والظلم أول أمس يادار ! فانتشر ما كان يحجبه من نور ، وسرى ما كان يصده من نسيم ، وعدنا الى نهج الحياة شامتين بمن هوَوا من أعاليه وثووا تحت أنقاضه !

لقد أبلاه عدل الحوادث كما أبلاك ظلمها ، وستبقى على الأبد آثارك المعنوية وآثاره ! فأما آثارك فتبقى بركة على الناس ، وحجة على البغى ، وتفسيراً لمعنى البطولة ؛ وأما آثاره فستبقى لعنةً فى فم الدهر ، ودمامة فى وجه التاريخ ، ووضاعة فى كبر الانسانية !

***

ألا فاسلمى على رغم هذا البلى يا دار ! فان لك فى كل ذهن صورة ، وفى كل نفس ذكرى ، وفى كل غمرة من غمرات الجهاد روحاً تمسك القوى ، وتلهم الصبر ، وتعين على مخاوف الطريق !

احمد حسن الزيات

قلت لنفسي...

وقالت لي... (١)

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

قلتُ لنفسي: ويحكِ يا نفسُ! مالي أتحاملُ عليكِ؛ فاذا وفيْتِ بما في وُسْعِكِ أردتُ منكِ ما فوقه وكلَّفتُكِ أن تَسعي؛ فلا أزال أُعْنِتُكِ من بعدِ كمالٍ فيما هو أكملُ منه، وبعد الحَسَنِ فيما هو الأحسن، وما أنفكُّ أُجْهِدُكِ كلَّما راجَعَكِ النشاط، وأُضْنيكِ كلما ثابت القوّة؛ فان تكن لكِ همومٌ فأنا أكْبَرُها، وإذا ساوَرَتْكِ الأحزانُ فأكثرُها مما أجلبُ عليكِ. أنتِ يا نفسُ سائرةٌ على النّهج وأنا أعتَسِفُ بكِ، أُريد الطيرانَ لا السَّير، وأبتغي عملَ الأعمار في عُمْر، وأَستحثُّكِ من كلِّ هَجْعَةِ راحةٍ بفجرٍ يمتدُّ منه نهارٌ مضطرِب؛ وكأنّي لكِ زمنٌ يُمادُّ بعضُه بعضاً، فما يبرح يَنْبَثِقُ عليكِ من ظلامٍ بنورٍ ومن نورٍ بظلامٍ؛ لِيُهيِّئَ لكِ القوّةَ التي تمتدُّ بكِ في التاريخ من بَعدُ، فتذهبي حين تذهبين، ويعيشَ قلبُكِ في العالم سارياً بكلماتِ أفراحه وأحزانِه

وقالتْ لي النفس: أمّا أنا فاني معكَ دأباً كالحبيبةِ الوفيّةِ لمن تُحبّ؛ ترى خضوعَها أحياناً هو أحسن المقاوَمة. وأما أنتَ فاذا لم تكن تتعبُ ولا تزالُ تتعب، فكيف تدُلُّني أنك تتقدّمُ ولا تزالُ تتقدّم؟

ليستْ دُنياكَ ياصاحبي ما تجدُه من غيرِكَ، بل ما تُوجده بنفسك؛ فان لم تزِدْ شيئاً على الدنيا كنتَ أنتَ زائداً على الدنيا، وإن لم تَدَعْها أحسنَ مما وجدتَها، فقد وجدتَها وما وجَدَتْك، وفي نفسكَ أولُ حدودِ دنياكَ وآخِرُ حدودِها. وقد تكون دنيا بعضِ الناس حانوتاً صغيراً، ودُنيا الآخَرِ كالقرية المُتَمْلِمَة، ودنيا بعضهم كالمدينة الكبيرة؛ أما دنيا العظيم فقارّةٌ بأكملها، وإذا انفردَ امتدَّ في الدنيا فكان هو الدنيا

والقوّةُ يا صاحبي تَغتذي بالتعب والمعاناة؛ فما عانيتَه اليومَ حركةً من جسمك، ألفيتَه غداً في جسمكَ قوةً من قُوَى اللحم والدم. وساعةُ الراحة بعد أيامٍ من التعب، هي في لذّتها أيامٌ من الراحة بعد تعب ساعة. وما أشبهَ الحيَّ في هذه الدنيا ووَشْكِ انقطاعِه منها — بمَنْ خُلِق ليعيش ثلاثةَ أيام معدودةٍ عليه ساعاتُها ودقائقُها وثوانيها؛ أفتراه يَغفُل فيُقدِّرُها ثلاثةَ أعوام، ويذهبُ يُسرِفُ فيها ضُروباً من لَهْوِهِ ولعِبِه ومُجونِه، إلا إذا كان أحمقَ أحمقَ الى نهايةِ الحُمْق؟

إتعبْ تعبَكَ يا صاحبي، ففي الناس تَعَبُ مخلوقٍ من عمله، فهو ليِّنٌ هيِّنٌ مُسوًّى تسويةً؛ وفيهم تَعَبُ خالقٍ عملَه، فهو جبارٌ متمرِّدٌ له القهرُ والغلَبة. وأنتَ إنما تكِدُّ لتسموَ بروحك الى همومِ الحقيقة العالية، وتسموَ بجسمك الى مشقّات الرُّوح العظيمة؛ فذلك يا صاحبي ليس تعباً في حفرِ الأرض، ولكنه تعب في حَفر الكنز

إتعبْ يا صاحبي تعبَكَ؛ فان عَناءَ الروح هو عُمْرُها، فأعمالُكَ عُمْرُكَ الرُّوحانيُّ، كعُمر الجسم للجسم؛ وأحدهما عُمْرُ ما يعيش، والآخر عُمْرُ ما سيعيش

***

قلتُ لنفسي: فقد مَلِلْتُ أشياءَ وتبرَّمتُ بأشياء. وإن عَمَلَ التغيير في الدنيا لَهْوٌ وهَدْمٌ لها كلما بُنيتْ، ثم بناؤُها كلما هُدِمتْ؛ فما من شيءٍ إلا هو قائم في الساعة الواحدة بصورتين معاً؛ وكم من صديقٍ خلطْتُه بالنفس يذهبُ فيها ذَهابَ الماءِ في الماء، حتى إذا مرَّ يومٌ، أو عَهْدٌ كاليوم، رأيتُ في مكانه إنساناً خيالياً كمسئلةٍ من مسائل النُّحاة فيها قولان ...! فهو يَحتمل تأويلَ ما أظنُّ به من خير، وما أتوقع به من شرٍّ! وكم من اسمٍ جميلٍ إذا هَجَسَ في خاطري قلتُ: آه، هذا الذي كان ...!

أما والله إن ثياب الناس لَتجعلُهم أكثرَ تشابُهاً في رأي النفس، مما تجعلهم وجوهُهم التي لا تختلف في رأي العين. وإني لأرى العالَمَ أحياناً كالقِطار السريع منطلقاً بركْبِه وليس فيه مَن

(١) كتبت في ساعة ضجر، من هذه الساعات الطارئة على الروح، يخيل للمرء فيها أنه هو وحده، والعالم كله وحده؛ ذاك في وجود نفسه خاصة، والآخر في وجود الطبيعة كلها

يقوده . وأرى الغفلة المفرطة قد بلغت من هذا الناس مبلغ من يظن أنه حي في الحياة (كالموظف تحت التجربة) . فاذا قضى المدة قيل له : ابدأ من الآن ؛ كأنه إذا عاش يتعلم الخير والشر ، ويدرك ما يصلح وما لا يصلح ، وانتهى من عمره الى النهاية المحدودة — رجع من بعدها يعيش منتظماً على استواء واستقامة ، وفى إدراك وتميز . مع أن الخرافة نفسها لم تقبل قط أن يعد منها فى أوهام الحياة أن رجلاً بلغ الثمانين أو التسعين وحان أجله فأصبحوا لم يجدوه ميتاً فى فراشه ، بل وجدوه مولوداً فى فراشه ... !

وقالت لى النفس : وأنت ماشأنك بالناس والعالم ؟ ياهذا ، ليس لمصباح الطريق أن يقول : « إن الطريق مظلم » إنما قوله إذا أراد كلاماً أن يقول : « هأنذا مضىء . »

والحكيم لا يضجر ولا يضيق ولا يتململ ، كما أنه لا يسخف ولا يطيش ولا يسترسل فى كذب الوهم ؛ فان هذا كله أثر الحياة البهيمية فى هذه البهيمة الانسانية ، لا أثر الروح القوية فى إنسانها . والحيوان هو الذى يجوع ويشبع لا النفس . وبين كل شيئين مما يعتور الحيوانية كالخلو والامتلاء ، واللذة والألم — تعمل قوى الحيوان أشياءها الكثيرة التى تتسلط بها على النفس لتحطها من مرتبة مرتبة الى أن تجعلها كنفوس الحيوان ؛ ولهذا كان أول الحكمة ضبط الأدوات الحيوانية فى الجسم ، كما توضع اليد العالمة على مفاتيح القطار المنطلق يتسعر مرجله ويغلى

إعمل ياصاحبى عملك ؛ فاذا رأيت فى العاملين من يضجر فلا تضجر مثله ، بل خذ اطمئنانه الى اطمئنانك ، ودعه يخلو وتضاعف أنت

إنه ليوشك أن يكون فى الناس ناس (كالبنوك) : هذه مستودعات للمال تحفظه وتخرج منه وتثمره ، وتلك مستودعات للفضائل تحفظها وتخرج منها وتزيدها . وإفلاس رجل من أهل المال هو إطلاق النكبة مسدداً سهمها على رجل تقتله ؛ ولكن إفلاس (بنك) هو إطلاق النكبة يدفعها الكبير على مدينة تدمرها

قلت لنفسى : فما أشد الألم فى تحويل هذا الجسد إلى شبه روح مع الروح ! تلك هى المعجزة التى لا توجد فى غير الأنبياء ، ولكن العمل لها يجعلها كأنها موجودة . والأسد المحبوس محبوسة فيه قوته وطباعه ؛ فان زال الوجود الحديدى من حوله ، أو وهنت ناحية منه انطلق الوحش .

والرجل الفاضل فاضل ما دام فى قفصه الفكرى ، وهو مادام فى هذا القفص فعليه أن يكون دائماً نموذجاً معروضاً للتنقيح الممكن فى النفس الانسانية ، تصيبه السيئة من الناس لتختبر فيه الحسنة ، وتبلوه الخيانة لتجد الوفاء ، ويكره البغض ليقابله بالحب ، وتأتيه اللعنة لتجد المغفرة ؛ وله قلب لا يتعب فيبلغ منزلة إلا ابتدأ التعب ليبلغ منزلة أعلى منها ، وله فكر كلما جهد فأدرك حقيقة كانت الحقيقة أن يجهد فيدرك غيرها

وقالت لى النفس : إن من فاق الناس بنفسه الكبيرة كانت عظمته فى أن يفوق نفسه الكبيرة ؛ إن الشىء النهائى لا يوجد إلا فى الصغائر والشر ، أما الخير والكمال وعظائم النفس والجمال الأسنى فهذه حقائق أزلية وجدت لنفسها ؛ كالهواء يتنفسه كل الأحياء على هذه الأرض ولا ينتهى ، ولا يعرف أين ينتهى ؛ وكما ينبعث النور من الشمس والكواكب إلى هذه الارض ، يشبه أن تكون تلك الصفات منبعثة إلى النفوس من أنوار الملائكة ، وبهذا كان أكبر الناس حظاً منها هم الأنبياء المتصلين بتلك الأنوار

ومن رحمة الله أن جعل فى كل النفوس الانسانية أصلا صغيراً ، يجمع فكرة الخير والكمال وعظائم النفس والجمال الأسنى ، وقد تعظم فيه هذه الصفات كلها أو بعضها ، وقد تصغر فيه بعضها أو كلها . ألا وهو الحب

لابد أن تمر كل حياة إنسانية فى نوع من أنواع الحب ؛ من رقة النفس ورحمتها ، إلى هوى النفس وعشقها

وإذا بلغ الحب أن يكون عشقاً ، وضع يده على المفاتيح العصبية للنفس ، وفتح للعظائم والمعجزات أبوابها ؛ حتى إنه ليجعل الخرافة الفارغة معجزة دقيقة ، ويملأ الحياة بمعان لم تكن فيها من قبل ، ويصبح سر هذا الحب لا ينتهى ؟ إذ هو سر لا يدرك ولا يعرف

***

إجهدْ جهدكَ يا صاحبي ، فما هو قفصك الفكريّ ذلك الشعاعُ الذي يحبسك ، ولكنه صَقلُ النفس لتتلقى الأنوار ، ولا بدّ للمرآة من ظاهرٍ غيرِ ظاهرِ الحجَر

***

قلتُ لنفسي : فما أشدَّه مضضاً أعانيه ! إن أمرى ليذهب فرَطاً . أكلما ابتغيتُ من الحياة مَرحاً أطربُ له وأهتزّ ، جاءتنى بفكرة أستكدُّ فيها وأدأب . أهذا السرور الذى لا يزال يقع بين الناس هو الذى لايكاد يقع لى . وهل أنا شجرة فى مغرِسها ؛ تنمو صاعدةً بفروعها ، ونازلة بجذورها غير أنها لاتبرحُ مكانها . أو أنا تمثالٌ على قاعدته ؛ لا يتزحزحُ عنها إلا ساعةَ لا يكون تمثالاً ، ولا يَدعُها حتى تَدعَه معانى العظمةِ التى نُصب لها ؟

وقالت لى النفس : ويحك ! لا تطلب فى كونك الصغير ماليس فيه ؛ إن الناس لو ارتفعوا إلى السماء وتقلبوا فيها كما يَسيح أهلُ قارةٍ من الأرض فى قارةٍ غيرها ، وابتغوْا أن يحملوا معهم مما هناك تَذكاراً صغيراً إلى الأرض — لوجدوا أصغرَ ما هنالك أكبرَ من الأرض كلها . فأنت سائح فى سموات

أنت كالنائم ؛ له أن يَرى وليس له أن يأخذ شيئاً مما يرى ، إلا وَصفه ، وحكمته ، والسرورَ بما التذَّ منه ، والألمَ بما توجَّع له

لن تكون فى الأرض شجرةٌ بِرجلين تذهب هنا وههنا ، ولكن الشجرة ترسل أثمارها يتناقلها الناس ، وهى تُبدِع الثمار إبداعَ المؤلف العبقريّ ما يؤلفه بأشدّ الكدّ وأعظم الجهْد ، مُطلِقَةً ضميرها فى الفكرة الصغيرة ، تَعقِدُها شيئاً شيئاً ثم تعود عليها بالزيادة ، ولاتزال كل وقت تعود عليها ، حتى تستفرغَ أقصى القوة ، ثم يكونُ سرورُها فى أن تَهبَ فائدتها ، لأنها لذلك وُجِدَتْ

إن فى الشجرة طبيعةً صادقةً لاشهوةً مكذوبة ، فالحياةُ فيها على حقيقتها ؛ وأكثرُ ماتكون الحياةُ فى الانسان على مجازها ، وشرطُ المجاز الخيالُ والمبالغةُ والتلوين . ولكن متى اختار اللهُ رجلاً فأقرَّ فيه سراً من أسرار الطبيعة الصادقة ، ووهب له العاطفةَ القادرة التى تَصنعُ ثمارَها — فقد غَرسَه شجرةً فى منبتها لامفرَّ ولا مندوحة . وقد يُخيَّلُ له ضعف طبيعته البشرية أحياناً أن نَضرةَ المجد التى تعلوه وتتألَّق حوله كشعاع الكوكب — هى تَعبُهُ وضجره ، أو أثر انخذاله وألمه ومسكنتِه . وهذا من شقاء العقل ، فانه دائماً يضيف شيئاً الى شىء ، ويخلط معنًى بمعنى ، ولايترك حقيقةً على ماهى ؛ كأن فيه ما فى الطفل من غريزة التقليد ، والعقل لايرى أمامه إلا آلاً لهية ، فهو يقلدها فى مُداخَلَةِ الأشياء بعضها فى بعض ، لأيجاد الأسرار بعضها من بعض

ومن ثمّ كانت الحقيقةُ الصريحةُ الثابتةُ مَدْعاةً للملل العقليّ فى الانسان ، لا يكاد يقيم عليها أو يتقيد بها ، فما نال شيئاً إلا ليطمع فى غيره ، وما فاز بلذةٍ إلا ليزهدَ فيها ، وأَجل ما أحبه الانسانُ أن يناله . فلا بدَّ لهذا الانسان مع كل صواب من جزءٍ من الخطأ ، فان هو لم يجد خطأ فى شىءٍ اِختلقَ لنفسه الخطأ المضحك فى شِبه رواية خيالية

إنه لشعر سخيف بالغُ السخافة أن يَتخيَّل الغريق مفكراً فى صيد سمكةٍ رآها . . . ولكن هذا من أبلغ البلاغة عند العقل الذى يبحث عن وهم يضيفه الى هذه الحقيقة ليضحك منها ، كما يبحث لنفسه أحياناً فى أجمل حقائق اللذة عن ألم يتألم به ليَعْبَسَ فيه !

***

قلت لنفسى : فهل ينبغى لى أن أحرقَ دمى لأنى أفكّر ، وهل أظل دائماً بهذا التفكير كالذى ينظر فى وجه حسناء بمنظار مكبِّر لايريه ذلك الوجه المعشوقَ إلا ثقوباً وتخريماً كأنه خشبةٌ نزِعت منها مساميرُ غليظة . . . ! فلا يجد المسكين هذه الحقيقة إلا ليفقد ذلك الجمال . وهل بُدٌّ من الشبه بين بعض الناس وبين ما ارْتصد له من عمل ؛ فلا يكون الحوذيُّ حوذيًّا إلا لشبه بين نفسه وبين الخيل والبغال والحمير . . . ؟

وقالتْ لى النفس : إن فأس الحطاب لاتكون من أداة الطبيب ، تخذ لكل شىء أداته ، وكن جاهلاً أحياناً ، ولكن مثلَ الجهل الذى يصنع لوجه الطفل بشاشته الدائمة ؛ فهذا الجهل هو أكبر علم الشعور الدقيق المرهَف ، ولولاه لهلك الأنبياء والحكماء والشعراء غماً وكمداً ، ولكانوا فى هذا الوجود ، على هذه الأرض ، بين هذه الحقائق — كالذى قُيِّد وحُبس فى رَهجٍ تثيره القدم والخف والحافر ؛ لايتنفس إلا الغبار يثار من حوله الى أن يقضى عليه

إجهلْ جهلَك يا صاحبى فى هذه الشهوات الخسيسة ؛ فإنها العلمُ الخبيث الذى يُفسد الروح ، واعرفْ كيف تقول لروحك الطفلةِ فى ملائكيتها حين تساورُكَ الشهوات : « هذا ليس لى ؛ هذا لا ينبغى لى »

إن الروح الكبيرة هى فى حقيقتها الطفلُ الملائكىّ

وعِلمُ خسائسِ الحياة يجعل للانسان فى كل خسيسةٍ نفساً تتعلقُ بها ، فيكون المسكينُ بين نفسين وثلاثٍ وأربع ، الى ثلاثين وأربعين ، كأنهن يتنازعنه فيضيعُ بهذه الكثرة ، ويصبحُ بعضه بلاءً على بعض ، وتشغَلُه الفضول ، فيعود لها كالمزْبلة لما أُلقى فيها ، وَيُمحَقُ فى نفسه الطبيعيةِ حِسُّ الفرح بجمال الطبيعة ، كما يُمحَق فى المزبلة معنى النظافة ومعنى الحِسِّ بها

هذه الأنفسُ الخياليةُ فى هذا الانسان المنكود ، هى الأرواح التى يَنفخُهَا فى مصائبه ، فتجعلها مصائبَ حيّةً تعيشُ فى وجوده وتعمل فيه أعمالَها ، ولولاها لماتت فى نفسه مطامعُ كثيرة ، فماتت له مصائب كثيرة

انظر بالروح الشاعرة ، ترَ الكونَ كلَّه فى سمائه وأرضه انسجاماً واحداً ليس فيه إلا الجمال والسحر وفتنةُ الطرب ، وانظر بالعقل العالم ، فلن ترى فى الكون كلّه إلا موادَّ علم الطبيعة والكيمياء

وَمَدَى الروح جمالُ الكونِ كلِّه ؛ وَمَدَى العقل قطعةٌ من حجر ، أو عظمةٌ من حيوان ، أو نسيجةٌ من نبات ، أو فِلْذَةٌ من معدن ، وما أشبهها

إجْهل جهلَك يا صاحبى ؛ ففى كل حُسْنٍ غزَلٌ ، بشرط ألاّ تكونَ العاشق الطامع ، وإلاّ أصَبْتَ فى كل حسنٍ همًّا وَمَشْغلة . . . !

***

قلتُ لنفسى : الى الآن لم أقلْ لكِ ذلك المعنى الذى كتمتُه عنكِ

وقالت لى النفس : وإلى الآن لم أقل لكَ إلا جوابَ ذلك الذى كتمتَه عنى . . . ؟!

طنطا مصطفى صادق الرافعى

٣ ـ محمد بك المويلحى

للأستاذ عبد العزيز البشرى



المرحوم محمد بك المويلحى

تمة فى نشأته ودراسته

لقد عرفتَ مما قصصنا عليك أن هذا الرجل وإن نشأ عظامياً بما لبيته من الغنى والحسب ، فقد نشأ عصامياً بما حصّل من العلم والأدب . اتكأ على نفسه فأكبَّ على الكتب دائرها ومجفوّها . ولعل أكثر نظره إنما كان فى كتب التاريخ والسِيَر ، ولو قد وقع لك صدر من آثار أبيه وآثاره لرأيت لهما فى مواطن الأستشهاد فطنة عجيبة ، الى دقائق دقيقة ، مما يَعلَق بزوايا التاريخ أو بحواشيه ، قل أن يفطن لها أكثر القارئين ، وقلّ أن يحفل بها أو يعلّقها من يفطن اليها من الدارسين . على أنها قد يكون لها فى دواعى الكلام مقام عظيم ، وكثيراً ما ترفعه درجاتٍ على درجات

كذلك اعتمد محمد فى تحصيل العلم والآداب على الاتصال بصدور أهل الفضل يصاحبهم ويلابسهم ، ويلازم مجالسهم ، ويشهد محاضراتهم ومقاولاتهم . كذلك داخل رجالَ الحكم وأصحاب السياسة فى مصر وفى الآستانة فعرف أساليبهم ، وأدرك مذاهبهم . ولم ينكسر على هذا وهذا ؛ بل لقد صاحبَ كذلك

أهل الظرف وأصحاب البدائه ، وشاركهم فى أسمارهم ، ودخل معهم فى مناقلاتهم ومنادراتهم

وعالج البيان من صدر شبابه ، يصقل له أبوه القول ، ويقرّب له مصطفى اللفظ ، ويأخذه بتجويد النسج ، ويهديه الى مضارب العلم . وسرعان ما نضج وأدرك ، وجرى قلمه بالبيان حلواً متيناً نيراً ، ووقع من فنون المعانى على أجلّها وأكرمها . ونهج لنفسه أسلوباً خاصاً به إن تأثر فيه بأحد ، فبالأسبقين من أعلام الكتاب فكان منه بذلك كلّه الأديبُ التام

واحترف صنعة القلم ، واشترك فى تحرير جريدة المقطم بضع سنين على ما أظن . ولا أحسبه قد شارك أباه فى تحرير الصحف التى أخرجها فى عهد المرحوم الخديو اسماعيل ، فتاريخها إن لم يكن أبعد من مولده ، فهو أبعد فى أرجح الظن ، من حمله القلم والله أعلم !

وكان أبوه ، رحمة الله عليهما ، كثير الاختلاف الى الآستانة مَثوَى الخلافة يومئذ ، فكان يصحبه فى بعض هذه الرحلات، وُقلد ابراهيم بك فى زمن السلطان عبد الحميد منصب المستشار لوزارة المعارف العثمانية ، وأقام فيه بضع سنين ، لعلها تسع إن صدقتنى ذاكرتى ؛ فقضى محمد فى الآستانة هذه السنين

ولما اعتزل المرحوم إسماعيل باشا إمارة مصر ، وآثر المقام فى إيطاليا دعا بابراهيم بك ليؤنسه ويسامره ، ويخدمه فى بعض مساعيه عند السلطان . فحمل معه ولده وأقاما فى نابولى فى قصر اسماعيل بضع سنين . ومن هنا تدرك كيف حذق محمد لغةَ التليان

ولقد طاف محمد كثيراً ببلاد أوربا ، إما موفداً من أبيه فى بعض مساعيه ، وإما متفرجاً متنزهاً . وله فى وصف مؤتمر باريس سنة ١٩٠٠ مقال بارع بديع ، كان ينشر منجماً فى مصباح الشرق[1] وطاف كذلك بالبلاد السورية ، وزار المدينة المنورة ووصف القبر الشريف أحسن وصف وأبدعه ، ونشره فى جريدة المؤيد[2]

واستقرّ المويلحيان أخيراً فى مصر ما يبرحانها إلاّ للنزهة والرياضة . وأصدرا صحيفة «مصباح الشرق» . وقدمرت بك صفتها فى أول مقال . ثم طواها كما ذكرت لك ، واعتكف فى داره لا يلى عملاً عاماً ؛ حتى عين فى سنة ١٩١٠ رئيساً لقسم الأدارة والسكرتارية فى ديوان (عموم) الأوقاف ، وأزيل عن هذا المنصب بعد إذ قامت الحرب العظمى ، وتبدّلت الحال ، لأسباب لا يحتمل ذكرها هذا المقال . فعاد الى اعتكافه لا يتدلىّ الى البلد إلاّ فى قضاء حاجة ، أو مساهرة من يستطيب مجالستهم من الصحاب ، وظل كذلك الى الشكاة التى مات فيها ، عليه رحمة الله . وكانت وفاته فى يوم ١٠ مارس سنة ١٩٣٠

أخلاق المويلحى وعاداته :

قبل أن أطرقَ هذا البابَ من سيرة الرجل يحسن بى أن أقرر أنه لم يكن على حظ من نطاقة اللسان ؛ بل لقد كان يعتريه فى بعض الحديث مايشبه الحبُسة ؛ بل لقد تتعثر الكلمةُ فى حلقه فلا يستطيع أن يلفظها إلاّ بمطّ عنقه ، كأنما يُعرِّى لها مجرى الصوت

ومن أهم ما يَلفت النظرَ فى خلاله أنه كان أقل خلق الله تأثراً بما يغمر المرءَ من متعارفَ الناس ومصطلحهم فى عاداتهم وتقاليدهم وسائر أسبابهم ؛ بل لقد كان له نظرُه الخاصّ فى الأشياء ، وكان له حكمه الخاص عليها ، وهو إنما يأخذ نَفْسه بما يصح عنده من هذه الأحكام ، لا يبالى أحداً ، ولا يتأثر ، كما قلت ، بأثر خارجىّ ، ولو كان مما انعقد عليه اجماعُ الناس ، وإذا كنتُ قد نعتُّه (بالفيلسوف) فانما أعنى هذه الصفةَ فيه . فاننى لم أكد أرى رجلاً لاءم كل الملاءمة بين رأيه فى أسباب الحياة ، وشدة تحرّيه أخذ النفس بأحكام هذا الرأى ، كما بان لى من خَلّةَ هذا الرجل بحكم ملابستى له السنين الطوال

ولقد كانت له آراء فى كثير من الأشياء لقد تبدو غريبة حتى يُظَن أن فى طريقة تفكيره شيئاً من الشذوذ والانحراف . وما أُحيلُ هذا إلاّ على أنه لا يخفّ لمطاوعة الناس فى كل ما يستوى من الأدراك للناس !

ثم لقد كان رجلاً يرجح عقلُه ذكاءَه . وإنه ليحتاج فى تفهُّم دقائق المعانى الى شىء من المطاولة والتدبير . على أنها بعد هذا تتّسق لذهنه مدركة ناضجة ، لا كما تخطر لحداد الذكاء (خطرة البرق بدا ثم اضمحلّ) !

---

(١) ألحق هذا الوصف بكتاب (حديث عيسى بن هشام) فى آخر طبعاته

(٢) وكان قد دعى إلى هذه الزيارة الكريمة مع صاحب المؤيد وكثيرين من أهل الفضل احتفالا بافتتاح سكة الحديد الحجازية .

كذلك كان مما يلفت النظر فى شأن المويلحى أنه شديد الاستيحاش من الناس ، فلا تراه يستريح بالحديث إلى من لا يعرف منهم ولم يألف . ولقد يكون فى مجلس يجمع الصفوة من خلانه ، ومعهم رجل لا يعرفه ، فاذا هو يفتُر وينقبض حتى يكاد (يوحش فى المجلس) . وعلى هذا لقد كان يكره ، بالطبع ، الدخول فى زحمة النـاس ، والترائى للجماهير ، وما إلى هذا من مقتضيات الظهور

ومن أجلّ صفات هذا الرجل حدّة العزم ، وقوة الصبر ، وشدة الحَمل على النفس . فما إن رأيته يوماً شاكياً ولا مظهراً للبَرم بالحياة مهما كرثه تصرّف الحياة . ولقد يكثر المالُ فى يده فيبسطها ، الى ما يقرب من السرَف فى النفقة فى حاجاته ، واصابة ما يحلو له من المتَع واللذائذ . ولقد يرقّ المال فى يده ، فيلزم داره الشهرين والثلاثة لا يبرحها أبداً ، متجملاً فى عامة شأنه بما عنده مهما يبلغ من القلة ، لا يسأل أحداً عوناً ولا يطالع الصديق بحاجة

كذلك كان من أجلّ صفاته الصدقُ فى القول ، ولقد عاشرته ما عاشرته ، فما أذكر والذى نفسى بيده ، أننى أحصيت عليه كذبة واحدة قطّ ، ولا من ذلك النوع الذى يتورّط فيه المرء فى مصانعة الناس ومجاملتهم ، فان ألحت التقاليد عليه فى شىء من هذا سكت أو ورّى . ولقـد أذكر أنه قابل ولىّ الأمر الأسبق فى يوم من أيام رمضان ، فسأله أصائم أنت يا محمد بك ؟ فأجاب من فوره (والله ما أكذبش عليك يا أفندينا) ! فضحك ملء شدقيه من هذا الجواب

***

ثم لقد كان ، رحمه الله ، شديدَ العناية بالنظافة فى جميع ملابساته ، متأنقاً عظيم التأنق فى كل شىء ، يحب الزهر ويكلف به ، ويحسن تأليفه وتصنيفه ، ولا يمسّ إلاّ أزكى العطر وأغلاه

وكان شديد الاحتفال للطعام ، مبالغاً فى التأنق فيه . ولربما طالع طاهيه المرات العديدة فى مطبخه ، يتقدم اليه بأن يفعل بهذا اللون كذا وكذا ، ويصنع بتلك الصحفة كيت وكيت ، وهو بهذا حق خبير . فاذا قُرِّب اليه طعامه اجتمع له اجتماع شهوانٍ يلتذّ به أيّما التذاذ . على أنه مع هذا كان حسن الأكل ، يلتزم فى تناوله ومضغه وإزلاقه أعلى الآداب

وكان رجلاً طَبًّا ، كأن طول تمرينه فى النقد الكتابى قد طبعه على النقد فى كل شىء ، وأنضج ملكته فيه ، فلا تراه يتخذ شيئاً فى أى سبب من أسبابه إلا إذا فحص ونقد وتخيّر ، فما يكاد يُخدع على أمر أبداً !

وهو ، بعدُ ، يحبّ النكتةَ البارعةَ ويحتفل لها . على أنه إذا وصل المجلسُ بينه وبين أصحابه ممن حذقوا هذا الفن وبرعوا فيه من أمثال المرحومين السيد محمد البابلى ، ومحمد بك رشاد ، ومحمد بك رأفت ، لم يكن فى الغالب هو المنشىء للنكتة والمبتكر لها . ولكنها ما تكاد تسقط من فم غيره حتى يتولاّها بالتخريج والمطّ والتوليد والتلوين ، فما ينتهى أحد فى ذلك منتهاه

ومهما يكن من شىء فان هذا الرجل كان من أوسع الناس علماً بطباع المصريين وأخلاقهم وعاداتهم ومداخل أمورهم ، على اختلاف طبقاتهم وتفاوت مراتبهم . فاذا تحدّث فى هذا الباب فحديث المتمكن الخبير

ومما ينبغى أن يذكر له ، ويختم به هذا الحديث ، أنه رجل لم يجد الالحاد ولا الزيغ الى قلبه السبيل ؛ بل لقد كان مؤمناً شديد الايمان بالله وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، والقدر ، والحمد لله رب العالمين . فان رأيت منه شيئاً من الانحراف فى تخريج مسألة جزئية من مسائل الدين ، فأَحِل الأمر على مجرد الخطأ فى الاجتهاد والتأويل

رحمه الله رحمة واسعة ، وغفر لنا وله ، وأحسن جزاءه فى دار الجزاء ؟

عبد العزيز البشرى

صفحة من التاريخ

مأســـاة

وقعة انبابة

للأستاذ محمد فريد أبو حديد

علة الشرق هاهى : حاكم يسطو ويعبث بالقطيع الذى هو حارسه ، ويبطش به بطش الذئب إذا عدا فى غيبة الحارس الأمين ، فتجفل الشياه ذات اليمين وذات الشمال . ويتقدم من هنا أو من هناك كلب جرىء يحاول أن يدفع الغائلة عن شياهه . فاذا هو يرى سيده الحارس هو الذى يبطش ويفتك . فيضع ذيله بين رجليه ، ويكتم عواءه فى حنجرته ، ويجرى إلى ناحية يكشر عن أنيابه منفرداً وهو متخاذل مهدود العزيمة . لو كان ذلك العادى ذئباً حقيقياً لما وضع الكلب المسكين ذيله بين رجليه ، بل لرفع ذيله وعدا عامداً إلى رقبة ذلك الذئب وأنجى منه القطيع . فأما والذى يفتك بالقطيع هو حارسه ، وأما والذى يبطش به هو الرجل الذى اعتاد أن يحمل الهراوة ويسطو بها على رأسه يكاد يحطمه ، فأمر آخر . وللكلب كل العذر إذا هو التمس العافية فى مهرب من مهارب المرعى ، أو فى مكمن من مكامن الوادى . ولا لوم عليه إذا هو فعل

كان (خوارزم شاه) حاكم خوارزم (أو بلاد ما بين سيحون وجيحون) فى أوائل القرن الثالث عشر المسيحى ، حاكماً جباراً عاتياً . وكان لا يتردد عن مظلمة ، ولا يحجم عن إيقاع . فكم مثَّل بتجار من بلاده ، وسجن وعذب ونهب . وكم مثّل بتجار من بلاد جيرانه التتار ، وسجن وعذب ونهب . ولم يقف أذاه عند هذا الحد ، بل تعدى إلى الدولة التى هو حاكمها ، ففت فى عضدها وخضد شوكتها ، وحطم عودها ، حتى صارت بلاده شعباً مشدوهاً وحكومة منحلة مضيعة

ثم كانت الكائنة التى لابد منها فى بلاد مثل بلاده ، فأغارت جيوش جنكيز خان على أطرافها فعجمتها ، فاذا هى رخوة جوفاء ، فتقدمت فيها وأوغلت ، فلم تجد من الطاغية إلا جباناً ، ولم تر منه إلا حرصاً على نفسه وماله وأهله . فما هو إلا أن رأى الجد من أعدائه ، وأحس بما كان لابد منه من ضعف ومن عجز ، حتى ترك البلاد وهرب إلى مأمن ليلتجىء إليه ، وبقى الناس حيارى بعد هربه يحاولون الدفاع وما لهم به من قوة ، ويرجون النجاة وأنى لهم ذلك وقد اقتلع الطاغية جذور القوة من الشعب لتلين له قناته ، فلانت قناة الشعب له حقيقة ، ولم يستطع أن يقاوم طغيانه ما بقى للطغيان ، حتى إذا ما أتاه العدو وألفى نفسه عاجزاً ، ترك ذلك الشعب المسكين وهو أعزل ذليل عاجز عن حماية نفسه . فكانت الكارثة ، وذهب الطاغية وشعبه كلاهما ضحية لعواقب الطغيان

هذه سُنة الطغاة أبداً ، وهذه سنة الكون منذ نشأ . وما كان للقرن الثامن عشر أن يحيد عن سنة الكون التى نكبت خوارزم فى القرن الثالث عشر . فقد كانت مصر فى القرن الثامن عشر تحت طاغيتين من طغاة البشر : مراد وابراهيم ، وكانا كسائر الطغاة قصيرى النظر مفلولى العزيمة ، لا همة لهما إلا فى صغائر الأمور والأنانية . ولسنا بسبيل وصف ما كان عليه حكمهما من الميل والاعوجاج ، ولا ما كان عليه خلقهما من الشناعة والفظاعة ، فقد يكون لهذا حديث آخر ، وإنما نقصد من كلمتنا هذه وصف حال البلاد عندما أزمت الأزمة التى كان لا محيد عنها ، ووقعت النكبة التى كان لابد منها من وراء حكمهما

جاء الفرنسيون إلى ثغر الاسكندرية ، وأصبح الصباح وإذا أهل ذلك الثغر يرون الجنود يخالطونهم ، ويترددون فيما بينهم

وكان الفرنسيون يحملون سلاحاً عجيباً غريباً ، لا عهد لأهل الثغر به ، فما كان عهدهم بالجنود إلا هؤلاء (الانكشارية) الذين يقيمون فى القلاع بين ظهرانيهم يدخنون الشبقات الطوال ، ويطيلون شواربهم ، ويعلون أصواتهم بالسباب ، ويمدون أيديهم بالأذى ، ولا يحملون من السلاح إلا تلك البنادق العتيقة الرثة التى أكلها الصدأ وعفّى عليها القدم

وتقدم الأنكشارية نحو الجنود الفرنج ليدفعوهم عن الاسكندرية ، فما هى إلا جولة قصيرة حتى رموا بما فى أيديهم من الأسلحة العتيقة ، وهرب من استطاع منهم الهرب إلى حيث يجد لنفسه مأمناً

ورأى أهل الأسكندرية أن هؤلاء الجنود ليسوا سوى شوكة فى جوانبهم فى السلم ، فاذا حل الحرب فهم لا يدفعون أذى ولا

يرجى منهم غير الأذى . فوقفوا بعضهم يشجع البعض ، وأخذهم يساعد الآخر ، يحاولون أن يلتمسوا لأنفسهم الحماية بسواعدهم . فتحصنوا فى المنازل وجعلوا فى كل ركن متراساً ، وفى كل حائط مرصداً . غير أنهم واحسرتاه أرادوا الدفاع ولم يستطيعوه ، فاذا بالعدو يحصدهم حصداً ، ويدك بيوتهم دكاً ، ويجتاح متاريسهم اجتياحاً . فسلموا للعدو ونزلوا على حكمه ، وصار الفرنسيون فى ساعة أصحاب الأسكندرية

ثم تقدم الجيش الفرنسى المنصور إلى طريق القاهرة ، وسمع طاغيتا الدولة بسيره ، فأجمعا أمرهما على أن يسير مراد ليلقاه ، فيشتت شمله بصدمة من صدمات فرسانه الشجعان . وخرج من القاهرة منتفخ الأوداج كبراً ، ممتلىء النفس إدلالاً وغروراً . وجعل الناس يسائلون أنفسهم ماذا عساه يفعل ، ويأبى هو إلا أن يرد بالازدراء على ذلك التساؤل قائلاً : « سنحطم ذلك الجيش المغير تحت سنابك خيولنا » وسار حتى بلغ شبراخيت أو قريباً منها ، وهنالك لاحت له طلائع الجيش الفرنسى . ثم كان الاصطدام ولطم لطمة خفيفة فلم يصبر عليها ، بل هرب فزعاً ، واضمحلت كبرياؤه ، وذاب إدلاله كما يذوب الثلج فى الحر ، وأسرع راجعاً إلى العاصمة لعله يأتنس بمن هنالك من جنود زميله ابراهيم ، أو ينتصر بمن هنالك من الشعب المصرى الذى طالما أوقع به فى طغيانه وجبروته . فلما بلغ مصر وقف ببقايا جيشه عند (انبابه) ، وأرسل إلى القاهرة يستنجد ويستمد ، فنودى على أهل القاهرة بالنفير والتجهز للدفاع . وهكذا لم يجد الطاغيتان أخيراً أن لهما غنى عن الشعب ، وعلما بعد أن وقعت الواقعة أن الملجأ الأخير إنما يكون إلى هؤلاء العامة ، وقد كانا فى أيام السلم لا يقيمان لهم وزناً ولا يفكران فيهم إلا من أجل أموال يبتزانها ، أو من أجل كبريائهما يغذيانها ، أو من أجل نفسيهما الطاغيتين يشبعان شهوة طغيانهما

ولكن كان الشعب واحسرتاه قد قتله الطغيان . فأجاب دعوة النفير وجعل يستعد للدفاع ، ولكنها إجابة المضنى الذى أجهده الضنى ، واستعداد النزيف قد خارت قواه من طول ما أريق من دمائه ، فما يكاد يعتمد على رجليه حتى يخر إلى الأرض مهدوداً متهالكاً

أغلق الناس (دكاكينهم) وهجروا أسواقهم ، وخرجوا جميعاً إلى بولاق يجمع بعضهم من بعض ما عندهم من المال الضئيل ، فأما من عنده فضلة من ماله فقد تطوع بالانفاق على غيره ، وبذل السلاح والطعام لمن يحتاج إليه . وهم فى كل ذلك يتلفتون لعلهم يرون هؤلاء الألى كانوا بالأمس يشمخون بأنوفهم عتواً وكبراً ، فلا يجدون إلا باحثاً منهم عن أمر نفسه ، أو منهمكا فى نقل متاعه وأمواله إلى حيث يكون آمناً عليها من النهب أو المصادرة . وأبصر الناس ذلك فلم يثنهم عن التقدم نحو واجبهم وهم فى غير عدة . لا بل ماهو أكثر من ذلك ، قد تقدموا وهم غير أكفاء ولا مدربين فى أمور الحرب ، إذ طالما قد وقف الطغاة بينهم وبين أداء حق الدفاع عن الوطن ، خوفاً منهم أن يجعلوا لهم فى أمر بلادهم رأياً ، أو فى حكم وطنهم شأناً . وتقدم شعب مصر نحو الجهاد الوطنى ، وأكثرهم أعزل لا علم له بالحرب ، ولا بما تستلزمه من جهد أو من دربة . حتى لقد خرج بعضهم بالنبابيت ، لا يحسبون ذلك إلا مغنياً عنهم فى معمعان ذلك الجهاد

ووقف الطغاة ينظرون ما صنعت أيديهم ، ومع ذلك لم تنفطر قلوبهم أسى مما يشهدون ، ولم يبخعوا نفوسهم على آثار ما اجترمت حكومتهم فى البلاد . بل ظلوا وهم « حريصون على حياتهم وتنعمهم ورفاهيتهم ، مختالون فى ريشهم ، مغترون بجمعهم . محتقرون لشأن عدوهم ، مرتبكون فى رؤيتهم ، مغمورون فى غفلتهم »(١)

وقدم جيش فرنسا بعد قليل الى انبابة ، فتقدمت اليه جماعة من العسكر ليُصدم الجيش المغير مرة أخرى بهجمتها العنيفة . فدفعوا الخيل فى صدر الجيش المقبل ، ولكن لشد ما عجبوا إذ رأوا ذلك الجيش ، لا يتمزق لصدمتهم ، ولا ينصدع من هجمتهم ، فعادوا مذعورين ، وستة آلاف من الجيش الفرنسى تضرب فى أقفائهم ، حتى بلغوا متاريس مراد بك ، فانضموا اليه وقد دب الرعب فى قلوبهم

سار الجيش الفرنسى المتقدم وراء المنهزمين ، وانقسم على أسلوبه وطريقته ، ثم دار على نظامه وخطته ، فاذا متاريس مراد بك محصورة وسط نيران الجيش الفرنسى ، وإذا النار تنصب على المصريين من خلف ومن قدام . وكان فزع ، وكانت مذبحة ، وما هى إلا ساعة أو أقل من ساعة ، حتى انجلى الغبار وارتفع القتام عن حطام الجيش المصرى ، بعضها ملقى فوق اليابس ، وبعضها يتخبط فى ماء النهر ، وفلول أسارى فى أيدى العدو ، والنقع الثائر من جهة الجنوب يخفى وراءه الطاغية (مرادا) ، وهو هارب نحو الجيزة حرصاً على حياته

(١) هذه كلمات الشيخ عبد الرحمن الجبرتى رحمه الله

صحف مطوية من التاريخ الاسلامى

٣ – العرب فى غاليس وسويسره

للأستاذ محمد عبد الله عنان

تتمة البحث

أتينا فيما تقدم على أخبار الغزوات والمستعمرات المسلمة فى غاليس ولومبارديا وسويسره منذ أواخر القرن الثامن الميلادى حتى جلاء المسلمين نهائياً عن تلك الوهاد والسهول فى أواخر القرن العاشر ، ونحاول الآن أن نعرض طرفاً من العوامل والظروف التى أحاطت بتلك الغزوات ، وطرفاً من الآثار التى خلفتها فى البلاد والأمم التى كانت ميداناً لها

ينكر بعض مؤرخى الغرب على تلك الفتوحات والغزوات العربية والاسلامية بوجه عام خاصة الاستقرار والانشاء ، ويقولون إنها كانت فى الغالب حملات ناهبة تقوم على رغبة الكسب وتحصيل الغنائم ، ولا ريب أن ظمأ المغنم ، وشغف المغامرة ، وما إليهما من لذة الاستكشاف والسيادة كانت من أهم العوامل التى قامت عليها هذه الغزوات ؛ وتلك هى العوامل الخالدة التى تقوم عليها فتوحات الأمم منذ أقدم العصور ؛ ولكن من الحق أيضاً أن نقول إن نزعة الجهاد لم تكن بعيدة عن تلك الغزوات ، وإن كثيراً من أولئك المغامرين البواسل كانت تحفزهم الحماسة الدينية وفكرة الجهاد فى سبيل الله ؛ وقد كانت هذه العصابات الغازية المستعمرة تعمل فى الغالب لحساب نفسها ، ولكنها كانت تعمل ملحوظة بعطف الحكومات والأمم الاسلامية التى تنتمى إليها ، وكانت تؤدى إلى تلك الحكومات خدمات جليلة بما كانت تقوم به من إزعاج الحكومات والأمم النصرانية وإضعاف جيوشها ومواردها ، ومن المحقق أيضاً أن نزعة الاستقرار والانشاء لم تكن بعيدة عن أذهان الغزاة ، بل كان يحفزهم مثل ذلك الروح الاستعمارى القوى الذى دفع الأمم الغربية فى العصر الحديث إلى افتتاح الأمم المتأخرة واستعمارها[1] ؛ وقد استقروا بالفعل واستعمروا حيث مهدت لهم الكثرة والقوة سبل البقاء ، كما فعلوا فى أقريطش ، حيث استقروا بها بعد افتتاحها ، زهاء قرن وثلث قرن (٨٢٧ – ٩٦١ م) ونشروا بها الاسلام والحضارة الاسلامية ؛ وكذلك استقروا مدى حين فى بارى وفى تارانت من ثغور إيطاليا الجنوبية ، وفى راجوازا (رغوس) من ثغور الأدرياتيك الشرقية ، وكان لهم على شواطئ قلورية (جنوب إيطاليا) مستعمرات زاهرة لبثت حلية هذه المياه عصراً . هذا ولسنا نتحدث عن دولة الاسلام فى اسبانيا ، ولا دولة الاسلام فى صقلية ، لأننا نخص بهذا الحديث غزوات الجماعات والعصابات المسلمة التى كانت تعمل لحساب نفسها مستقلة عن الحكومات

ويبالغ المؤرخون الغربيون أيضاً فى تصوير الآثار المخربة لتلك الغزوات الاسلامية ، وما كانت تقترن به من ضروب العنف والسفك ، ولكن العنف والقسوة والسفك والتخريب لم تكن خاصة بالغزوات الاسلامية ، وإنما كانت من خواص العصر ذاته ؛ ولم تكن الغزوات النصرانية للأراضى الاسلامية أقل عنفاً وسفكاً ؛ ويكفى أن نشير هنا إلى الحملات الصليبية التى لبثت مدى عصور تحمل إلى الأمم الاسلامية أروع صنوف الدمار

(١) Finlay : Byzantine Empire Ch. III–I

وسمع من فى الجانب الشرقى من النيل بضجة الحرب ، ورأوا ما اندلع فيها من لهب ، وما تردد فيها من قصف يشبه قصف الرعد ، فلم تثبت نفوسهم بما لا عهد لهم به ، وإن كانوا حريصين على أن يجاهدوا ويجالدوا ، وخانهم الجلد وإن كانت نفوسهم تواقة الى أن يثبتوا ويصبروا . والذعر متى استولى على النفس ، لم يبق فيها محل لثبات ولا لصبر ، ولم يترك فى القلب موضعاً لحفاظ ولا لحمية . فركبوا رءوسهم وهاموا على وجوههم ، بعضهم ناج بنفسه لا يلوى على شىء ، وبعضهم استطاع أن يثبت نفسه ليخرج بأهله وحرمه ، وأقبل عليهم الليل ، وهم فوضى مشردون مشدوهون ، يحسبون كل صيحة صوت مطارد ، ويخشون أن يكون كل متردد فى الظلام عدواً مقبلا بسفك الدماء وهتك الأعراض

وهكذا شهدت أهرام مصر كيف تم للطاغية جريمته بنكبة شاملة ، لا يبقى فيها بر ولا فاجر ، ولا يسلم منها الظالم ولا الضحية

محمد فريد أبو حديد

والسفك ؛ بل يكفى أن نشير إلى ما كانت ترتكبه البعوث الاستعمارية الحديثة ، الاسبانية والانكليزية والفرنسية ، فى الدنيا الجديدة من صنوف القسوة والسفك ، وما ترتكبه اليوم بعض الأمم الأوربية « المتمدنة » من الجرائم المروعة فى أفريقية وآسيا باسم المدنية والاستعمار

***

والآن لنر ماذا خلفته الغزوات الاسلامية فى هذه الأنحاء من الآثار المادية والاجتماعية . ومن المحقق أن هذه الآثار لا تكاد ترى اليوم ، ولا يشعر بها إلا الباحث المنقب ، ويلاحظ أولا أن الفتوحات العربية الأولى فى غاليس وأكوتين لم يطل أمدها أكثر من نصف قرن ، ولم تكن الحضارة الاسلامية فى اسبانيا قد تكونت وتفتحت بعد . ثم كانت الغزوات اللاحقة التى فصلنا أخبارها ، والتى كانت أقرب إلى المغامرات المؤقتة منها إلى الفتوح المستقرة ، فلم تتح للغزاة فرص الاستقرار والعمل السلمى ، لأنهم كانوا فى مراكزهم النائية متفرقين يشغلون قبل كل شئ بالدفاع عن مراكزهم وأنفسهم . بيد أن هذه الغزوات المحلية المتقطعة ، وهذه المستعمرات العربية النائية خلفت وراءها فى الأراضى المفتوحة بعض الآثار الهامة المادية والمعنوية . ومن ذلك ما كشفته المباحث الأثرية منذ القرن الماضى على شواطىء خليج سان تروبيه من أطلال الحصون العربية القديمة التى كانت قائمة فى تلك الأرض ، والتى لا تزال قائمة فى بعض آكام الألب الفرنسية والسويسرية ، وهى تدل على ما كان للغزاة من الحذق والبراعة فى فن التحصينات والمنشآت الحربية ؛ وهنالك فى جنوب فرنسا ، وفى بعض أنحاء ايطاليا الشمالية والجنوبية ، عدد كبير من الأبراج القائمة فوق الآكام والربى ، يدل ظاهرها على أنها كانت تستعمل لأغراض حربية ؛ ويرى البعض أن هذه الأبراج إنما هى آثار عربية من مخلفات الغزاة ، كانت تبني لعقد حلقات الاتصال وتسهيل حركات الدفاع فيما بينهم ؛ ومن المعروف أن العرب منذ فتوحاتهم الأولى فى سبتمانيا (لانجدوك) أعنى منذ أوائل القرن الثامن ، كانوا ينشئون فى الأراضى المفتوحة حصوناً وأبراجاً تسمى « بالرباط » . بيد أن فريقاً آخر من الباحثين يرى بالعكس أن هذه الأبراج إنما كانت من إنشاء أبناء الأرض المفتوحة ، أقاموها أيام اشتداد خطر الغزوات العربية ليستعينوا بها على رد الغزاة

وقد ظفرت المباحث الأثرية أيضاً بالعثور على كثير من القطع الذهبية والفضية (المداليات) فى أنحاء كثيرة من لانجدوك وبروفانس ، وثبت أنها من مخلفات العرب ، وأنها كانت تستعمل للتعامل مكان النقود ، ولكنها لا تحمل اسماً ولا تاريخاً ، ولا يمكن تعيين عهد سكها ، وإن كانت بذلك تدل على أنها ترجع الى عصر الغزوات الأولى . ووجدت أيضاً فى الأعوام الأخيرة فى منطقة تور سيوفٌ ودروع قيل إنها عربية من مخلفات الواقعة الشهيرة التى نشبت فى تلك السهول بين العرب والفرنج (بلاط الشهداء)

ومن الحقائق التى لا شك فيها أثر العرب فى الزراعة ؛ فقد رأينا أن كثيراً من الغزاة تخلفوا عن إخوانهم واستقروا فى تلك الأرض وزرعوها . ومن المعروف أن العرب حولوا وديان اسبانيا المجدبة الى حدائق وغياض زاهرة ، ونقلوا اليها مختلف الغراس من المشرق ، وأنشأوا بها القناطر العظيمة ؛ وقد حمل هؤلاء الغزاة المغامرون الى جنوب فرنسا كثيراً من خبرتهم الزراعية ، ولقنوها لسكان تلك الانحاء ؛ ويقال إن « القمح الأسمر » الذى هو الآن من أهم محاصيل فرنسا انما هو من مخلفات العرب ، وهم الذين حملوا بذوره وكانوا أول من زرعوه بفرنسا ؛ والمرجح أيضاً أنهم هم الذين حملوا فسائل النخيل من اسبانيا وأفريقية الى شواطىء الريفييرا . ومن آثارهم الصناعية ، استخراج « القطران » الذى تطلى به قاع السفن ويحميها من العطب ، فهم الذين علموه لأهل بروفانس ، وما زال عندهم من الصناعات الذائعة ، وما زال اسمه الفرنسى « Quitran » ينم عن أصله العربى

ومن الحقائق الثابتة أيضاً فضل العرب فى تحسين نسل الخيل فى تلك الأنحاء ، وما يزال فى جنوب فرنسا جهات تشتهر بجمال خيولها ونبل أرومتها ، ولا سيما فى « كاماراج » ، وفى مقاطعة « لاند » من أعمال غسقونية ؛ ومن المحقق أن هذه الخيول الأصيلة الجميلة إنما هى من سلالة الخيول العربية التى أحضرها الفرسان المسلمون معهم الى تلك الأنحاء

ولا ننسى ما للدم العربى من أثر فى بعض أنحاء جنوب فرنسا ، فقد رأينا أن العرب أنشأوا بعض المستعمرات الزراعية وتزوجوا من نساء تلك الأرض وتناسلوا فيها ؛ ولما تغلب عليهم النصارى ، وأخرجوا نهائياً من تلك الأرض ، تنصر كثير منهم ممن أسروا ، وأرغموا على افتداء حياتهم وأسرهم بالتنصر ؛ وقد

لبث أبناء هؤلاء العرب المتنصرين عصوراً فى تلك البلاد ، يشتغلون بالزراعة والتجارة ، حتى جرفهم تيار التطور واندمجوا أخيراً فى المجتمع النصرانى ، واختفت كل آثارهم وخواصهم العربية . ، وما زالت ثمة فى بروڤانس فى وادى الرون على مقربة من ليون ، وكذلك فى بيجور على مقربة من جبال البرنيه ، جماعات فرنسية تتكلم لهجات غريبة ، ولها أخلاق وتقاليد خاصة ، ويظن البعض أنها ترجع إلى أصل عربى ؛ ولكن البحث يرجح أنها ترجع الى بعض قبائل النور الذين استقروا فى تلك الأنحاء منذ عصور

هذا ، وأما عن الآثار الاجتماعية ، فانه يلاحظ فى بعض جهات بروڤانس التى استقر فيها العرب مدى حين ، أن لسكانها بعض التقاليد الخاصة ، ومن ذلك أنواع معينة من الرقص ، يظن أنها ترجع إلى أصل عربى . على أن أعظم آثار العرب الاجتماعية فى جنوب فرنسا ، يبدو فى تطور الحركة الفكرية فى العصور الوسطى ، فقد كان للعرب أثر عظيم فى تكوين النزعة الشعرية فى الجنوب ، وظهر أثر هذه النزعة واضحاً فى الحركة الأدبية التى تعرف بحركة « التروبادور » Troubadour ، والتى ظهرت فى جنوب فرنسا وفى شمال اسبانيا وشمال إيطاليا منذ القرن الحادى عشر ، وقوامها القريض الحربى والغنائى ، وزعماؤها فرسان شعراء وفنانون . أضف الى ذلك أن تأثير الحضارة الأسلامية فى سير حضارة أوربا الجنوبية لم يقف عند هذا العصر ولا عند هذه الحدود ، فقد استمرت العلائق بعد ذلك طويلا بين مسلمى الأندلس ، والأمم النصرانية المجاورة ، وكان للحضارة الأندلسية فى تطورها الاجتماعى أعظم الآثار

ولقد لبثت ذكرى العرب وذكرى الغزوات العربية فى فرنسا تثير مدى القرن الثامن فى نفوس النصارى أعظم ضروب السخط والروع ، وتقدمها إلينا الرواية الكنسية المعاصرة فى أشنع الصور ؛ فلما ظهرت عصابات النورمان والمجر ، وغزت فرنسا من الشرق والغرب ، رأى النصارى من عيثهم وسفكهم أهوالاً لاتذكر بجانبها أهوال الغزوات الاسلامية ، وارتفعت ذكرى العرب ، وأضحت تقرن بكل ماهو عظيم ضخم [1] ، يقول رينو :

(١) Reinaud, ibid, P. 310

« إن ذكرى الغزوات النورمانية والمجرية لاتوجد إلا فى الكتب . ولكن ما السر فى أن ذكرى العرب مازالت ماثلة فى جميع الأذهان ؟ لقد ظهر العرب فى فرنسا قبل النورمان والمجر ، واستطالت إقامتهم بها بعد الغزوات النورمانية والمجرية . وإن غزوات العرب الأولى ليطبعها طابع من العظمة ، حتى أننا لانستطيع أن نتلو أخبارها دون تأثر . ذلك أن العرب ، دون النورمان والمجر ، ساروا مدى آماد فى طليعة الحضارة ؛ ثم انهم لبثوا بعد أن غادروا أرضنا ، موضع الروع فى شواطئنا ، وأخيراً لأن المعارك التى اضطلعوا بها أيام الصليبيين فى اسبانيا وأفريقية وآسيا ، أسبغت على اسمهم بهاء جديداً . بيد أن هذه العوامل كلها قد لاتكفى لتعليل المكانة العظيمة التى يتبوأها الاسم العربى فى أوربا وفى أذهان المجتمع الأوربى . أما السبب الحقيقى لهذه الظاهرة المدهشة ، فهو الأثر الذى بثه قصص الفروسية فى العصور الوسطى ، وهو أثر لايزال ملموساً الى يومنا [1]

محمد عبد الله عنان

المحامى

(١) Reinaud; ibid, p. 311,312 وقد اعتمدنا على مؤلف هذا العلامة فى كثير من هذه النقط الخاصة بآثار العرب فى جنوب فرنسا

في يوم ماطر

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازني

كانت السماء مُطبِقةً على الأرض ، والمطر يسحّ حثيثاً متداركاً يكاد من شدته يقشر القطران ، والماء يسيل على جانبي الطريق ويتدافع ويرتفع له مثلُ الموج ، وكان أمام نافذتي بوابة عريضة وقفت على عتبتها فتاةٌ تتقي المطر في ظُلّتها . وكانت ترتدي ثوباً مُشرّقاً بين الحمرة والبياض كأنما استعارت صبغته المزدوجة من الشمس الغاربة والقمر الطالع . وكانت فيه كأنها مِقطَعٌ أومثال فصل الثوب على قده لعرضه على العيون ، فمحاسنها كلها مجلوّة ، وخطوط قوامها اللين مرسومة ، وقد اجتمع طرفان منه على سرتها وانعقدا على صفة وردة كبيرة ، وتدلت على مدار خصرها الهضيم ذلاذل تكاد تمس قدميها الدقيقتين ؛ أما صدرها فأطاف به شيء لا أدري ماصفته كان ثدياها الناهدان يبدوان من تحته كأنهما في كأسين ، أو كأنهما موجتان متناوحتان حجزتا وحيل بينهما وبين التسرب والانسياب

ولم يكن أفتن من منظرها وهي واقفة ترقب انقطاع المطر ، وكان معي في البيت صاحب يحمل مظلة جميلة غالية ، لاتفارق يده في صيف ولاشتاء ، ولا ليل ولا نهار ، فكأنها قطعة منه ، أو امتداد لذراعه ، فغافلته وحملتها ، ومضيت بها الى هذه الفتاة ووضعتها في يمينها ، وارتددت عنها بلا كلام . فلما أفاقت من دهشتها كنت قد غبت عن عينها

وآن لصاحبي أن يخرج ، فنظر فلم يجد المظلة ، فتلفت هنا وههنا ثم سأل فقلت :

« أترى هذه البوابة ؟ كانت هنا فتاة جميلة تخشى على نفسها وعلى ثيابها من المطر فلم يسعني إلا أنجدها . . . . »

فسأل : « أعطيتها الم . . . . .

قلت : « ألم أقل لك إنك ذكي ؟ بل أنت أيضاً ذو مروءة ونجدة وشهامة »

قال : « ولكن مظلتي ؟ كيف أخرج الآن . . . . وفي هذا المطر أيضاً ؟ »

قلت : « إنها بلا شك تشكر لك هذا الصنيع الجميل ، فأنت سعيد بذلك ، فليتني كنت صاحبها — أعني المظلة ! »

قال : ولكن ماذا أصنع ؟ كيف أخرج ؟ إن هذا شيء . . »

قلت : « ياصاحبي . إن الايثار حميد ، والأثرة ذميمة »

فقال : « تعطي مظلتي لفتاة ؟ أما إن هذا لغريب ! »

قلت : « ياصاحبي . لو رأيتها لما قلت « فتاة » بهذه اللهجة التي أنكرها ولا أرضى عنها . إنها فتاة رائعة . وإني لرجل متزن الأعصاب في العادة ، ولكني أرجو أن تثق أنها فتنتني . وإني لآسف على حرمانك هذه المظلة الثمينة — أو التي كانت ثمينة منذ أربع سنوات — ولكن عليك أن تتعزى بأن التي تحملها الآن أجمل فتاة على ظهر هذه الأرض ، وأنك أنت سبب سعادتها في هذه اللحظة ، وأن اسمك سيخلد في التاريخ ، وأني لو كنت شاعراً لقلت أبياتاً أخلد فيها صنيعك الحسن هذا ، وإن أبنائي سيحفون بي كل ليلة ويطلبون أن أقص عليهم كيف فقد صاحبي العظيم مظلته الغالية . . . »

ولم أتم خطبتي لأنه خرج مغضباً ، فأمسكت وحمدت الله !

***

وحمل إليّ البريد رسالة غريبة هذا نصها بعد الديباجة المألوفة :

« إن ما أقرأه لك يحملني على الثقة بأنك لن تخيب رجائي فيك . فهل لك أن تقابلني أمام باب « جروبي » الساعة السابعة من مساء اليوم ؟ ولا أجرؤ أن أبدو لك حتى تبدو لي ، فاذا صدق ظني فيك فلعلك تتفضل بأن تضع في عروتك زهرة من زهور « الأرواله » البيضاء ، لأعرفك بها ، وزيادة في الحيطة أرجو أن تقول لي « لا مطر غداً » فأقول لك « لم ولماذا وكيف يكون ذلك » . فلا تنس »

ولم يكن على الرسالة توقيع ، فلم أشك في أنها فتاة مصرية لم تألف أن تدخل « جروبي » وتجلس في حديقته ، ولكنها تسمع باسمه فهي تقف عند بابه ، فما يعقل أن يكون كل هذا الحرص والحذر من رجل ، واطمأنت نفسي بعد أن خلصت إلى هذه النتيجة ، وشكرت الحظ الذي أبعد عني صاحبي قبل أن تردني

هذه الرسالة ، بدقائق ، ولو أنه كان معى لأطلعته عليها بلا أدنى ريب ، ولكان المحقق أن يسبقني إلى باب « جروبى » فيطردنى بوجوده ، عنه

واشتريت الزهرة المطلوبة ، ووضعتها فى العروة ، وأخرجت منديلاً وظللت أرفع يدى به وهو منشور إلى أننى لأحجب هذه الزهرة عن العيون ، فقد كانت كبيرة وأنا أخجل أن أضع على صدرى زهراً ولو كان فى حجم الحمصة ، ووقفت بباب جروبى أتأمل الداخلين والداخلات ، والخارجين والخارجات ، وأشاور نفسى وأسائلها كيف أقدم على خطاب من لا أعرف ؟

ولم يكن ثم بد من الاقدام ، فما اشتريت الزهرة البيضاء الكبيرة وغرستها فوق حبة قلبى لأعرض نفسى على الأنظار ، فتوكلت على الله ، على أنى — كما لا أحتاج أن أقول — أهملت العجائز وتركتهن يرحن ويجئن كما يشأن دون أن أكلف نفسى حتى النظر إليهن ، وأقبلت فتاة رشيقة تتلفت كالمترددة فتمنيت أن تكون هى ودنوت منها وقلت :

« معذرة . واغتفرى لى تطفلى ، لامطر غداً ! »

فنظرت إلى باسمة وقالت :

« باردون ؟ »

فقلت لنفسى : « ليست بها . وقد غلطت والله ياولد ، فاخرج من هذا المأزق بسرعة » فتبالهت وسألتها بغير العربية :

« إنما كنت أسأل هل هذا جروبى ؟ »

فقالت وهى تبتسم : « طبعاً ... الأسم مكتوب ... »

فبلعت ريقى وشكرتها وارتددت عنها

وأقبلت أخرى أعذب منها — بلا شك — وأظرف على التحقيق ، وأولى بأن ترؤف بى إذا غلطت فيها ، وكانت تتأمل إعلانات وصوراً لشركة بواخر هناك ، فدعوت الله أن يجعلها من نصيبى ، وأقبلت عليها أقول بلا تمهيد :

« لامطر غداً »

فقالت بعربيـة محطمة ، أستحى أن أثبتها بنصها : « شىء غريب ! متأكد ؟ »

قلت : « ثقى بى . إنى نشرة جوية متنقلة ... مرصد إنسانى متجول ... »

قالت : « ظاهر .. أشكرك ... »

قلت : « هذا واجبى ... فلا أستحق شكراً »

قالت : « إنك تؤديه بذمة .. لقد رأيتك الآن تخاطب سيدة هناك ... وهذه أخرى آتية ، فاسمح لى ألا أحول بينك وبين عملك »

قلت : « لم يكذب ظنى »

قالت : « كيف ؟ »

قلت : « كنت موقناً أنك أظرف من تلك التى هزئت بى وأخجلتنى »

فسألتنى : « هل أنت على موعد مع مجهولة ؟ »

قلت : « أصبت ... »

قالت : « مسكين ! .. لعلها هذه » وأشارت فالتفت فاذا فتاتى — أعنى الفتاة التى تفضلت عليها بمظلة صاحبى ، فقلت : « اخفينى عنها لحظة حتى تمر ... تظاهرى بأنك صديقتى دقيقة واحدة .. أرجو »

فضحكت وقالت : « لماذا تخشاها ؟ هل خنت لها عهداً ؟ لابأس . تعال »

ووضعت ذراعها فى ذراعى وهممنا بأن نسير ، وإذا بفتاتى تصيح ورائى :

« من فضلك ... من فضلك ... ألا تذكرنى .. إنى مدينة لك بالشكر ، لقد تركتنى فجأة كما ظهرت لى فجأة ، فلم أدر أين اختفيت ، فهل تسمح لى باسمك وعنوانك لأعيد اليك المظلة ؟ »

فقلت : « هذا شىء تافه ... لا تفكرى فيه »

قالت : « ولكنى لا أستطيع أن أبقيها عندى وأحرمك »

قلت : « ثقى أنك لا تحرمينى شيئاً فانها ليست لى ، بل لصاحب »

قالت : « ما أرقه ! »

قلت : « إنه على نقيض ذلك . . أبعد ما يكون عن الرقة »

قالت : « هذا أدعى لردها اليه »

قلت : « لقد انتهى الأمر . سرقت مظلته وأعطيتك إياها ، وعرف ماكان ، وغضب وشال نفسه وحطها ، ولم يبق هناك شيء آخر يمكنه أن يصنعه ، فلا تكترثي له ولا تفكري فيه »

قالت بعطف : « مسكين ! »

قلت : « لقد كنتُ أنا المسكين ، وكانت هذه المظلة تفقأ عيني كلما رأيتها ، فالآن أمنت ، وفي وسعي أن ألقاه وأنا مطمئن ، من غير أن يؤذي بصري منظر المظلة »

قالت وهي تضحك : « على كل حال لابد من ردها اليه ولك وله الشكر »

فكتبت لها الاسم والعنوان ، ولم يفتني أن أحذرها من مقابلته ، ولم يبق بعد ذلك ما يقال ، فهممت بتوديعها وإذا برجل همٍّ هرم يدنو مني وينظر الى الزهرة التي على صدري ثم يقول وهو يفرك كفيه :

« هل سمعتك تقول لا مطر غداً ! »

فحدقت فيه متردداً ، ثم رفعت يدي الى الزهرة فأخرجتها من العروة ورميتها على الأرض ، فلم ينهزم وقال :

« لم ولماذا وكيف يكون ذلك ؟ »

فكاد عقلي يطير ، فتناولت ذراعيْ الفتاتين وأوليت الرجل ظهري ومضيت بهما عنه ، وهما ذاهلتان تنظران اليّ ولا تفهمان ، غير أن هذا لم يمنع الرجل أن يمشي ورائي وهو يصيح :

« لم ولماذا وكيف يكون ذلك ؟ »

فقلت لفتاتيّ : « لم يبق إلا أن نجري ، فهل تقدران على ذلك ؟ »

وجرينا مسافة ونحن نضحك ، فلما أمنا أن يدركنا وقفنا وقصصت عليهما الخبر ،

فسألتني فتاة المظلة :

« ولكن ماذا يريد منك ؟ »

قلت : « لا أعرف ، ولا أحب أن أعرف . . »

قالت : « ألا يحسن أن تتبين ؟ »

قلت : « أتبين ؟ أليس حسبي ما منيت به من خيبة الأمل . ومع ذلك لقد عوضني الله خيراً . . . هيا بنا لنستريح . . . »

ابراهيم عبد القادر المازني

بين فن التاريخ وفن الحرب

١٠ – خالد بن الوليد *

في حروب الردة

للفريق طه باشا الهاشمي

رئيس أركان الجيش العراقي

« لقد شهدت مائة زحف أو زهاءها ومافي بدني شبر إلا وفيه ضربة أو طعنة ، وهأنذا أموت على فراشي كما يموت البعير ! فلا نامت أعين الجبناء »

خالد بن الوليد

خطة خالد

لا شك في أن خالداً كان يقدر حرج الموقف في قتاله أهل اليمامة . وكان يعلم أنه مقدم على أمر يتوقف عليه نجاح الاسلام أو خيبته . فالبلاد وعرة ، والقرى فيها منيعة ، والناس ملتفون حول داعيهم ، معتصمون بحيهم ، وعددهم كثير ، وسلاحهم يضرب به المثل

لذلك لم يقدم على الحركة قبل أن تصله النجدة الموفدة من المدينة . وأراد أن يمهد سبيل الظفر بالتدابير السياسية وذلك :

أولاً — باستمالة التميميين في اليمامة الى جانبه

ثانياً — بتفريق رؤساء سجاح عن مسيلمة

ثالثاً — باستخدام المسلمين من بني حنيفة للمشاغبة على مسيلمة

والأخبار تدل على أنه أرسل الكتب الى التميميين ليتركوا جانب مسيلمة فوفق الى ذلك ، كما أنه ساق قوة خيالة لمقاتلة رؤساء سجاح الثلاثة وهم عقة وهذيل وزياد ، ففرق رجالهم واضطرهم الى العودة الى حي بني تغلب في الشمال . وأن المسلمين من بني حنيفة ثاروا على مسيلمة وشاغبوا عليه ، ولعل عكرمة بن أبي جهل أراد أن يستفيد من المشاغبين فقاتل رجال مسيلمة فلم ينتصر ، وكانت الأخبار تأتي خالداً وتنبئه بما في اليمامة

(*) وهو بحث فني قيم لا يضطلع بمثله اليوم فيما نعلم غير كاتبه الفاضل « الرسالة »

أما خطته العسكرية فكانت ترمى الى الزحف الى اليمامة على أقصر طريق ، والهجوم على جيش مسيلمة أينما لقيه

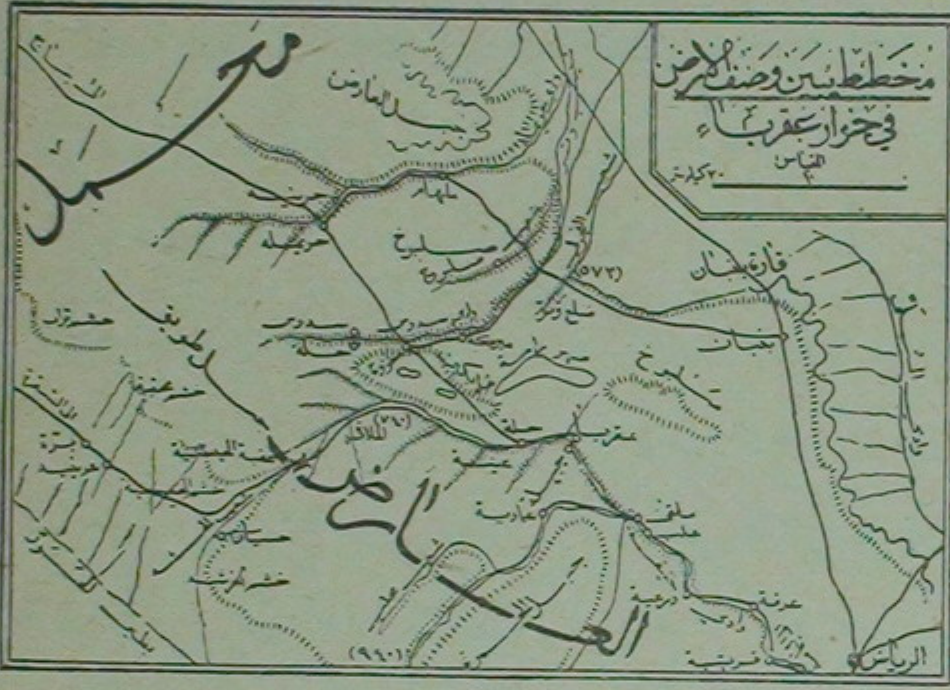
عاد خالد من المدينة الى البطاح فى أوائل السنة الثانية عشرة الهجرية ، وكان الجيش مجتمعاً فيها ينتظر أمر الحركة . وقضى خالد مدة قصيرة فى البطاح يترقب ورود المدد من المدينة ، فكانت القبائل تمد جيشه برجالها ، فالتحق به رجال من بنى أسد وتميم وبنى عامر ، وكانت الأخبار ترد اليه من اليمامة منبئة بأحوالها . وآخر من وصل اليه ابن عمير اليشكرى فأطلع خالداً على جلية الأمر فى اليمامة

ساحة القتال

اختار مسيلمة موقع عقرباء لجيشه ، وهذا الموقع على الحدود الفاصلة بين اليمامة وبلاد بنى تميم ، وهو مفتاح لموضع من أخطر المواضع السوقية بين مقاطعة العارض ومرتفعات المحمل وجبل طويق

وبالقرب من هذا الموقع تقوم قرية جبيلة الحديثة ، وقد بحث فيه (فلبى) فى كتابه الآنف الذكر قال : « وإذا تأملت الوادى (أى وادى حنيفة) عند جبيلة — وجبيلة هذه أحد منازل بنى حنيفة من قديم الزمن ، وإليهم نسب الوادى وفى سمائه ارتفع لواء صيتهم فسمى بوادى حنيفة — لألفيته وهدة من الأرض قريبة القرار ، واسعة الجوانب ، تكتنفها المهابط المطمئنة الجرداء من كل حدب وصوب ، وللوادى عقيق يضيق شيئاً فشيئاً حتى تراه قد غاض فى بطن مجرى نشزت على ضفافه الطنوف الشواخص على النحو المتقدم وصفه . فالقرية إذن مفتاح لموضع من أخطر المواضع السوقية وأعظمها شأناً ، واقعة بين مساكن العارض ومرتفعات المحمل وطويق . وقيل فى هذا المكان وقعت معركة فاصلة من معارك التاريخ الاسلامى ، دارت فيها رحى القتال بين أصحاب النبى وبعض المؤمنين من رجاله ، وبين مسيلمة نبى حريملة الكذاب وقواته ، وكان النصر فيها حليف المسلمين بعد أن خسروا آنئذ فى سبيل دينهم القويم نحو سبعين من نخبة الصحابة ، وهم الرجال الخلص الذين اصطفاهم النبى فأودع فى صدورهم تعاليمه الشفوية ..» إلى أن قال : « لاتزال قبور الصحابة الذين استشهدوا فى تلك المعركة ظاهرة الى يومنا هذا ، مهجورة فى منبطح من غرين نهر عميق صفا ماؤه واقع على مقربة من القرية . وقد رأيت القبور أيام زيارتى لها ومرورى بها وقد بليت وتحاتت بتأثير الزوابع وفعل الأعاصير ، وقد نجم عن ذلك أن تفتحت جوانب الكثير منها ، فظهرت فيها ثُغَر فاغرة أفواهها نحو الوادى . ولم يزد ارتفاع الرسوب الغرينى على ثلاث أو أربع أقدام فوق القبور . فلنا إذن من ذلك أحد الأمرين : إما أن تكون دفائن تلك القبور أحدث مما يزعمون ، وإما أن الغرين قد رسب من قبل فى المكان الموجود الآن فيه وبات مستواه على ما هو عليه بطبيعة الحال قبل معركة جبيلة . ولا غرو فى أن الأمر الثانى هو الافتراض المحتمل وقوعه »

وصف الموضع :



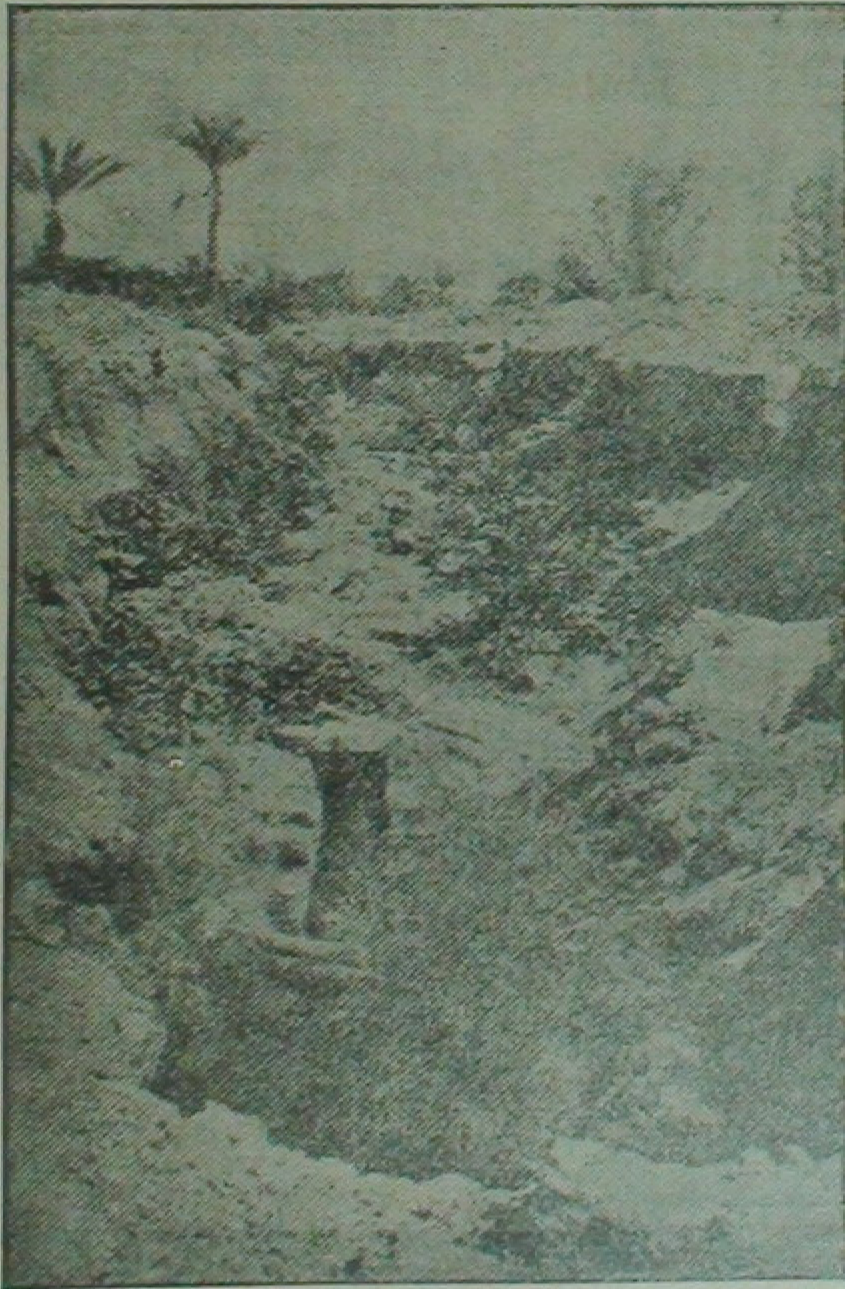
خريطة تبين وصف الأرض فى جوار عقرباء

يظهر من مطالعة الخريطة أن المحل الذى اختاره مسيلمة لقبول المعركة واقع فى جنوبى العقدة التى تتشعب منها الجبال وتمتد فى جهات مختلفة وتشرف على رؤوس الوديان المتدفقة من أرجائها والتى منها ما يجرى نحو الشمال ويغذى وادى الخفس ، ومنها ما يجرى نحو الشرق ويغذى وادى حنيفة ، ومنها مايجرى نحو الغرب ويغذى بطين الحور . وقد اجتمعت قريتا عينة وسدوس وجبيلة حول هذه العقدة . وتعلو فى وسطها رابيتا الأبكين : الرابية الغربية والرابية الشرقية ، والغربية أعلى من الشرقية إذ يبلغ ارتفاعها عن سطح البحر (٣٢٠٠) قدم ، وعن وادى حنيفة الذى يجرى فى جنوبها (٢٠٠) قدم . وفى شرق الأبكين جبل رامة يمتد من الغرب الى الشرق ، وهذا الجبل مع جبل الأبكين يفصلان بين شعيب سدوس ووادى حنيفة . فالشعيب فى الشمال ينبع من غربى سدوس ويجرى نحو الشرق فيترك على ضفافه سدوس وحزوة ، ويلتقى بشعاب كثيرة أخرى

تصب جميعاً فى وادى الخفس . والوادى الثانى يجرى فى الجنوب والى شرقى جبيلة يرتفع جبل صلبوخ . فكأن الجبال الثلاثة — الأبكين ورامة وصلبوخا — متصل بعضها ببعض ومحيطة بموضع جبيلة كالقوس

ويصف المستر فلبى المنظر قرب الأبكين فيقول : « وقفنا نتأمل بطحاء طويق الفسيحة الأرجاء ، فألفينا مشهدها رائعاً مهيباً ، وتتخللها الهضاب المتموجة والأودية السحيقة . وإنا لكذلك إذ لاحت منى التفاتة الى الشمال فشاهدت على مسافة ميلين من بسطة أرضاً انطوى تحتها واد فسيح تحدرت جوانبه وانقطعت مجامعه عند حوض الخفس الواقعة فيه واحة سدوس — تلك الواحة الفضة الرائعة المشهورة بجمالها الفتان — كنا نراها ونرى فيها كل صغيرة وكبيرة ، ونحن واقفون فى مكاننا كأنها أمامنا وعلى مقربة منا ، ولكنها ويا للأسف لم تكن على استقامتنا ، فشق علىّ زيارتها لبعد طريقنا عنها . وقد شاهدت بساتين النخيل ممتدة على طوار الينبوع الدافق مسافة ميل تقريباً فى عرض قدرت معدله بين ٢٠٠ و٣٠٠ ياردة » الى أن يقول : « ورأيت على مدى البصر الى الجهة الشمالية الشرقية نجف مرتفعات العرمة ، وقد بدت بلون أدكن ، ونظرت الى الشمال الغربى وادى حريملة ، وهو فرع آخر من فروع حوض الخفس ، وقد انفصل عن فرع سدوس بجرف متسع المتون مرتفعها ، ورأيت فى الجهة الجنوبية الغربية صدع جرف طويق فبدت من موضعه عقبة الحيسية (١) . والى الجنوب وراء خط وادى الحيسية ، وجرف الملاقى تمتد ظهور طويق العريضة فى الفضاء الأغبس الفسيح »

وعند ما يبحث فى ثنية اليمامة يقول : « وبعد مسير سبعة أميال (على موازاة الابكين) وصلنا الى عقبة الحيسية المعتبرة منبع وادى حنيفة ، فوجدنا أشجار السنط منتشرة حولها ، وكان ارتفاعنا عن مستوى سطح البحر فى هذه البقعة نحو ٣٢٠٠ قدم ، وكانت المسافة بيننا وبين البطين (بطين الحور) نحو ٤٦ ميلاً . وقد استطعت أن أشاهد من هذا المكان وادى حنيفة بأسره آخذاً الى الجنوب حتى اليمامة ، وهذا بون شاسع يربو طوله على ١٠٠ ميل ، وتأخذ فيه الأرض فى الانخفاض تدريجاً إلى أن يبلغ ١٩٠٠ قدم . ولم أجد عند الصبَب من المناظر الطبيعية ما يحمانى منها على الأطناب فى الوصف ، وشاهدنا هناك الأرض أمامنا وقد انحدرت بهيئة مثلث فسيح الأرجاء ، ضلعاه لهبان منفرجان من جرف طويق ومنته طرفاهما بأنفين بارزين أحدهما خشم خرشة فى الجنوب ، والآخر خشم الحيسية فى الشمال ، وتمتد بين هذين الأنفين قاعدة المثلث بشكل جناح ناشز من الحجارة الرملية الجرداء المغراء يسمونه المرقى فى جانبه الأبعد يهبط شديد الانحدار ينتهى الى وادى البطن . أما صدر شعيب هشة فهو فى منبعه يتغلغل صبباً بين جدران منهره متمعجاً فى عقيق ضيق ، ثم يأخذ بعد حين فى الاتساع على متون المنحدرات حتى إذا بلغ الحاشية الغربية من جناح المرقى ينفرج فى بطن المحلة الخصبة ثم ينثنى فيجد له مسيلا فى خلال الحواجز الصخرية فيتسرب منها الى وادى البطين



منظر من مناظر وديان اليمامة ويرى فيه كيف تتصرف المياه إلى الوديان

وعلى نحو أربعة أميال من منبع وادى حنيفة نجد ما بقى من آثار ديار الهشة ، وهى لا تتعدى بعض بساتين النخيل المتفرقة وثلاث آبار دائمة المياه ، اثنتان منها مطويتان بالحجارة غزيرتا

(١) يعنى ثنية اليمامة

الماء دائمة الورد ، يبلغ عمق كل بئر منها نحو قامتين ، ويظهر لون الماء عند استقائه من البئر أطحل بتأثير الطبقة المتحجرة المستبطنة قرار البئر ، وإذا ترك الماء وشأنه قليلا ركد فيه الغرين فصفا وراق . وطعمه لذيذ عذب جداً . وينفرد آل قحطان بالاستفادة من هذه البئر » الى أن يقول : « وليس فى عقبة الحيسية صخور حرشاء تقف عثرة فى سبيل الابل . وربما كانت أسهل عقبات طويق مسلكا ، لذا فضلت على غيرها باتخاذها طريقاً للحج ، وهو الطريق الذى سلكناه لما غادرنا الرياض من حيث ينحدر هذا الطريق الى الضرمة »

الحركة من البطاح الى اليمامة

وبعد أن اجتمعت قوات المسلمين فى البطاح واطلع خالد على موقف الحنفيين قرر التقدم نحو مسيلمة . وكان قبل ذلك قد رتب جيشه ، فكانت نواته على ما نعلم الأنصار والمهاجرين والقبائل الضاربة بين المدينة ومكة . فقسم الجيش الى فرق : فرقة من الأنصار ، وفرقة من المهاجرين ، وألفت كل قبيلة فرقة . وناط بأبى حذيفة وزيد ابن الخطاب قيادة المهاجرين ، وبثابت بن قيس وبر بن مالك قيادة الأنصار . أما القبائل فكانت بقيادة رؤسائها

وروى أبو بشر الدولابى فى كتاب التاريخ أن معركة عقرباء وقعت فى شهر ربيع الأول للسنة الثانية عشرة الهجرية ، وأول هذا الشهر يقابل أوائل شهر أيار ٦٣٣ ميلادية . وتبلغ المسافة بين البطاح وعقرباء زهاء ٣٥٠ كيلومتراً ، أى مسير عشرة أيام بجيش كبير على أقل تقدير . فيظهر من ذلك أن خالداً ترك البطاح فى نهاية شهر نيسان أو فى أوائل شهر أيار

فكانت خطة خالد ترمى الى الزحف تواً الى اليمامة ، على أن يهجم على جيش مسيلمة أينما لقيه . وكان يعلم أن مسيلمة متأهب للمقابلة على حدود بلاده . لذلك قدّم أمامه مقدمة من بنى طئ بقيادة عدى بن حاتم ، وعين لها فرات بن حيان دليلاً ، وسلك طريق الوشم نحو الشقرة . وأرسل الى الأمام مكنف بن زيد الخيل وأخاه ليتجسسا الأخبار

ولم يشأ أن يترك خط الانسحاب معرضاً للخطر ، لذلك أقام سليطاً مع قوة فى البطاح ليكون ردءاً له من القبائل . وتزعم الرواية أن أبا بكر أمد خالداً بسليط ليكون ردءاً له لئلا يأتيه أحد من ظهره . أما مسيلمة فلما علم بمسير خالد نحوه تقدم بجيشه من اليمامة نحو الشمال وعسكر فى عقرباء بجميع قواته منتظراً ورود جيش المسلمين متأهباً للمقاومة الشديدة . وكانت أخبار انتصار المسلمين على أهل الردة قد سبقت جيش المسلمين فألقت الرعب فى قلوب الحنفيين

وتقدم جيش المسلمين على الطريق المذكور وكانت المقدمة تسبقه وتستطلع الأحوال

طه الهاشمى

يتبع

٢ – محاورات أفلاطون

معذرة سقراط

ترجمة الأستاذ زكي نجيب محمود

أخذت ألتمس الناس رجلاً فرجلاً وأنا عالم بما أثيره فى الناس من غضب كنت آسف له وأخشاه ، ولكنها ضرورة لم يكن عن المضى فيها محيص . إنها كلمة الله ، ويجب أن أحلها من اعتبارى المكان الأسمى ، فقلت لنفسى : لا بد أن أحاور أدعياء العلم جميعاً لعلى أفهم ما قصدت إليه الراعية . وأقسم لكم أيها الأثينيون أغلظ القسم[1] — فواجبى أن أقول الحق — إننى قد انتهيت من البحث إلى ما رويت ، وقد صادفت فيمن هم دون هؤلاء مقاماً رجالاً بلغوا من الحكمة ما لم يبلغه هؤلاء . وسأقص عليكم حديث تجوالى وما عانيت خلاله لتحقيق ما قالته الراعية . تركت رجال السياسة وقصدت إلى الشعراء ، سواء فى ذلك شعراء المأساة أو الأغانى الحماسية أو ما شئتم من صنوف الشعر ، وقلت فى نفسى : إن الأمر لا ريب مكشوف لدى الشعراء فسأجدنى بإزائهم أشد جهلاً . ثم جمعت طائفة مختارة من أروع ما سطرت أقلامهم ، وحملتها إليهم أستفسرهم إياها لعلى أفيد عندهم شيئاً . أفأنتم مصدقون ما أقول ؟ واخجلتاه ! أكاد أستحى من القول لولا أنى مضطر إليه ، فليس بينكم من لا يستطيع أن يقول فى شعرهم أكثر مما قالوا هم وهم ناظموه . عندئذ أدركت على الفور أن الشعراء لا يصدرون فى الشعر عن حكمة ، ولكنه ضرب من النبوغ والوحى . إنهم كالقديسين أو الأنبياء الذين ينطقون بالآيات الرائعات وهم لا يفقهون معناها . هكذا رأيت الشعراء ، ورأيت فوق ذلك أنهم يعتقدون فى أنفسهم الحكمة فيما لا يملكون فيه من الحكمة شيئاً استناداً الى شاعريتهم القوية . فخلفت الشعراء وقد علمت أنى أرفع منهم مقاماً ، فقد فضّلنى عليهم ما فضلنى على رجال السياسة

وأخيراً قصدت الى الصناع ، وكنت أظننى جاهلاً بما يتصل بالصناعة من علم ، وكنت أحسب أن لدى هؤلاء الصناع مجموعة طريفة من المعارف ، وقد ألفيتنى مصيباً فيما ظننت ، إذ كانوا يعلمون كثيراً مما كنت أجهله ، فكانوا فى ذلك أحكم منى بلا ريب . ولكنى رأيت حتى مهرة الصناع قد تردوا فيما تردى فيه الشعراء من خطأ ، فتوهموا أنهم ما داموا أكفاء فى صناعتهم فلا بد أن يكونوا ملمين بكل ضروب المعرفة السامية ، فذهبت سيئة الغرور بحسنة الحكمة . لهذا ساءلت نفسى بالنيابة عن الراعية : أكنت أحب أن أظل كما أنا ، لا أملك ما يملكون من علم ، ولا أكبو فيما كبوا فيه من خطأ ، أم كنت أحب أن أكون شبيههم فى العلم والجهل على السواء ؟ فأجبت نفسى ، وأجبت الراعية : إننى خير منهم حالاً

وهذا الذى انتهيت إليه قد حرك العداوة فى قلوب نفر من أشد الناس سوءاً وخطراً ، كما نسج حولى طائفة من الدعاوى الباطلة . ولقد جرى الناس على تسميتى بالحكيم إذ خيل اليهم أننى ما فتئت أحمل الحكمة التى كانت تعوزهم . ولكن الله — أيها الأثينيون — هو الحكيم الأوحد ، ولعل الله حين أجرى على لسان راعيته ما نطقت به ، أراد أن الحكمة فى البشر ضئيلة أو معدومة . إنه لم يتحدث قصداً عن سقراط ، إنما ضرب باسمى مثلاً ، كأنما أراد أن يقول إن من يدرك كما أدرك سقراط أن حكمته فى حقيقة الأمر لا تساوى شيئاً ، يكون أحكم الناس . فأنا كما تروننى أسير وفقاً لما يرسمه لى الله ، أفتش عن الحكمة فى كل من يدعيها ، لا أبالى أكان من أبناء الوطن أم غريباً ، فان لم أجده كما ادعى ، صارحته بجهله كما أمرتنى الراعية . ولقد انصرفت إلى هذا الواجب انصرافاً لم يبق لى معه من الوقت ما أبذله فيما يشغل بال العامة ، أو أنفقه فى شئونى الخاصة ؛ وهكذا كرست حياتى لله فعشت فقيراً معدماً

أما أن الشبان الأثرياء الذين لا تضنيهم شواغل الحياة كثيراً ، قد التفوا حولى ، فهم قد جاءوا يسعون من تلقاء أنفسهم ، ليشهدوا امتحان الأدعياء ؛ وكثيراً ما انطلقوا بدورهم يلتمسون أدعياء الحكمة ليجروا عليهم التجربة نفسها . وما أكثر ما

---

(١) فى الأصل « أقسم لكم أيها الأثينيون بالكلب » وقد آثرنا هذا التحريف

صادفوا رجالاً ظنوا فى أنفسهم العلم ، فاذا بهم لا يعلمون إلا قليلا ، أو هم لا يعلمون شيئاً ؛ فلا يلبث هؤلاء الذين امتحنهم الشبان أن يصبوا علىّ جام غضبهم ، وأنفسهم أحق بهذا الغضب ، ويستنزلون اللعنة على سقراط لأنه أفسد الشبان . فان سألهم سائل فيم هذه اللعنة ، وأى جريرة أتى ، وأى رذيلة عَلّم ، لما حاروا جواباً ، لأنهم لا يعرفون لغضبهم سبباً . ولكى يستروا علائم الحيرة تراهم يعيدون التهم المعروفة التى قذف بها الفلاسفة جميعاً ، من أنهم يعلّمون مايتصل بالسحاب ، وما هو دفين تحت الثرى ، وأنهم كافرون بالآلهة ، وأنهم يُلبسون الباطل صورة الحق ؛ والحقيقة أنهم جاهلون ويأبون الاعتراف بجهلهم المكشوف . ولما كانت تلك الفئة كثيرة طامعة نشيطة ، وقد تصدوا جميعا للنزال بما لهم من ألسنة حداد تلعب بالنفوس ، فقد ملأوا أسماعكم بهذا الاتهام الباطل . وكان أن ناصبنى العداء هؤلاء المدعون الثلاثة : مليتس ، وأنيتس ، وليقون . فقد ناهضني مليتس ليمثل جماعة الشعراء ، وأنيتس ليمثل طبقة الصناع ، وليقون ليمثل الخطباء . وإننى كما قدمت لا آمل فى أن أمحو فى لحظة كل ما علق بى من تهم باطلة . أيها الأثينيون ! لقد رويت لكم الحق كل الحق ، لم أُخف شيئاً ، ولم أشوه شيئاً ، ومع هذا فأنا أعلم أن صراحتى فى الحديث ستصدكم عنى ، وما هذا الصد إلا برهان على أنى أقول الحق . تلك هى دعواهم وذاك منشؤها ، ولن تسفر هذه المحاكمة ولا أية محاكمة مقبلة عن غير هذا

حسبى هذا دفاعا للفريق الأول من المدعين . وهأنذا أتوجه الآن بالحديث نحو الطائفة الأخرى وعلى رأسهم مليتس ، ذلك الرجل الطيب ، الوطني ، كما يقول عن نفسه . وسأحاول أن أدفع عن نفسى ما اتهمنى به هذا الفريق الجديد . وجدير بنا أن نبدأ بتلخيص دعواهم ، فماذا يزعمون ؟ إنهم يقولون : إن سقراط فاعل للرذيلة ، مفسد للشباب ، كافر بآلهة الدولة ، وله معبودات اصطنعها لنفسه خاصة . تلك هى دعواهم ، وسبيلنا الآن أن نناقشها تفصيلا

أما الزعم بأنى فاعل للرذيلة مفسد للشباب ، فأنا أقرر أيها الأثينيون عن هذا الرجل مليتس ، أنه هو صاحب رذيلة . ورذيلته أنه يتفكه حيث يجب الجد ، وهو لا يرى غضاضة فى أن يسوق الناس الى ساحة القضاء متستراً وراء الحماسة المصطنعة والاهتمام المتكلف بأمور لا تعنيه فى شيء ؛ وسأقيم لكم الدليل على صدق هذا

— اقترب منى يا مليتس لألقى عليك سؤالاً . هل تفكر طويلاً فى إصلاح الشباب ؟

— نعم ، إنى أفعل

— إذن فقل للقضاة من هو مصلح الشبان ، فأنت لابد عالم به مادمت قد عانيت آلاماً فى اكتشاف مفسدهم ، فها أنت ذا قد سقتنى الى القضاء متهماً . تكلم إذن وقل للقضاة من هو مصلح الشبان . مالى أراك يا مليتس لا تحير جواباً ؟ ! أفليس هذا دليلاً قاطعاً ، مزرياً بك ، يؤيد ما ذكرته من أن أمر الشبان لا يعنيك فى شيء ؟ تكلم يا صديقى وحدثنا عن مقوم الشباب !

— هى القوانين

— ولكن ليست القوانين هى ما عنيتُ يا سيدى ، إنما أردت أن أعرف ذلك الشخص الذى يحفظ القوانين قبل كل شيء

— هم من ترى فى المحكمة من قضاة يا سقراط

— ماذا تريد أن تقول يا مليتس ؟ أتعنى أن القضاة قادرون على تعليم الشبان وإصلاحهم ؟

— لست أشك فى أنهم كذلك

— أكلهم كذلك ، أم بعضهم دون بعض

— القضاة جميعاً

— قسما بالآلهة إن هذا لخبر سار . إذن فهناك طائفة من المصلحين ، وماذا تقول فى النظارة ؟ أهم يصلحون الشبان ؟

— نعم هم يفعلون

— وأعضاء الشورى كذلك ؟

— نعم إنهم كذلك يصلحون

— ولكن قد يكون رجال الدين لهم مفسدين ؟ أم هم كذلك يقومون الشباب ؟

— إنهم كذلك من المصلحين

— إذن فكل الأثينيين يصلحون الشبان ويرفعون من قدرهم ، ما عداى . فأنا وحدى الذى أفسدت الشباب . أهذا ما أردت أن تقول ؟

— وذلك ما أؤيده بكل قوتي

— يالبؤسي إذن إن صح ما تقول ! . ولكني أريد أن أسألك سؤالاً : أيصح هذا القول كذلك على الجياد ؟ أيمكن أن يقدم لها الأذى فرد واحد ، بينا يقدم لها الخير العالم أجمع ؟ ألست ترى أن العكس هو الصحيح ؟ فرجل واحد يستطيع أن يعمل لها الخير ، أو قل هي فئة قليلة ، وأعني أن مروّض الجياد هو الذي يقدم لها الخير ، أما بقية الناس الذين يستخدمونها في عملهم فهم لها مسيئون . أليس هذا صحيحاً يا مليتس بالنسبة الى الجياد وكل أنواع الحيوان ؟ نعم ولا ريب ، سواء رضيت أنت وأنيتس أم لم ترضيا ، فذلك لايعنينا . اللهم أنعم بحياة الشبان لو كان عليهم مفسد واحد فحسب ، وكانت بقية العالم لهم مصلحين . وأنت يامليتس ، لقد أقمت لنا الدليل ناصعاً على أنك لم تكن تفكر في الشبان ؛ فاهمالك إياهم واضح حتى فيما ذكرت في صحيفة الدعوى

والآن يامليتس ، لابد أن أسألك سؤالاً آخر : أيهما خير ، أن يكون أبناء وطنك الذين تعيش بينهم فاسدين أم صالحين ؟ أجب ياصاح فذاك سؤال ميسور الجواب ! ألا يقدم الصالحون الخير لجيرانهم بينا يسيء اليهم الفاسدون ؟

— نعم ولاريب

— وهل هناك إنسان يفضل أن يساء اليه على أن يُحسن اليه ممن يعيش بينهم ؟ أجب ياصديق ، فالقانون يتطلب منك الجواب . أيحب أحد أن يصيبه الضر ؟

— كلا ولاريب

— وأنت حين تتهمني بافساد الشبان والحط من شأنهم ، أتزعم أني أتعمد ذلك الافساد أم يجيء عني عفواً ؟

— أنا أزعم أنه إفساد مقصود

— ولكنك اعترفت الآن أن الرجل الصالح يقدم الخير لجيرانه ، وأن الفاسد يقدم لهم الشر ، أفتظن أن هذه الحقيقة قد أدركتها حكمتك البالغة وأنت لاتزال من الحياة في هذه السن الباكرة ، وأنا ، وقد بلغت من الكبر عتياً ، مازلت أخبط في ظلام الجهل فلا أعلم أني أفسدت أولئك الذين أعيش بينهم فيغلب أن يصيبني منهم الضرر ؟ أفأكون عالماً بهذا ومع ذلك أفسدهم ، وأفسدهم متعمداً ؟ هذا ماتقوله أنت ، فلا أحسبك مقنعني به ولا مقنعاً به كائناً من كان . إحدى اثنتين : إما أنني لا أفسد الشبان ، أو أنني أفسدهم عن غير عمد ؛ وسواء أصحت هذه أم تلك فأنت كاذب في كلتا الحالتين [1]

فان كانت جريمتي بغير عمد فلا يحاسب عليها القانون ، وكان خليقاً بك أن تسدى لي النصح خالصاً ، محذراً ومؤنباً في رفق ولين ، فان انتصحت بك ، أقلعت ولا ريب عما كنت آتيه بغير قصد ؛ ولكنك أبيت لي نصحاً وتعليماً ، وآثرت أن تجيء بي متهماً في ساحة القضاء ، وهي محل العقاب لا مكان التعليم

لقد تبين لكم أيها الأثينيون أنه لايعنيه أمر الشبان في كثير ولا قليل ، ولكني مازلت أود يامليتس أن أعرف منك فيم كان إصراري على إفساد الشباب ؟ لعلك تعني كما يبدو من اتهامك أني حملتهم على إنكار الآلهة التي اعترفت بها الدولة ، ليقدسوا في مكانها معبودات جديدة أو قوى روحانية . أليست هذه هي الدروس التي زعمت أني أفسدت بها الشباب ؟

— نعم ، هذا ما أقوله وأؤكده

— إذن فقل لي يا مليتس ، وقل للمحكمة في عبارة واضحة ، أي آلهة أردت في دعواك ، لأنني حتى الساعة لا أفهم ما تأخذه على . أكنت أعلم الناس الأيمان بآلهة معينة ؟ وإن كان هذا فهم مؤمنون بآلهة ما ، ولم أكن إذن كافراً تمام الكفران . إنك لم تشر إلى ذلك في الدعوى واكتفيت بالقول أنها ليست نفس الآلهة التي تعترف بها المدينة . ما تهمتي ؟ أهي الدعوة إلى آلهة مخالفة أم تزعم أني ملحد ومعلم للألحاد ؟

— أردت الأخيرة ، فأنت ملحد غاية الألحاد

— هذا قول عجيب لم نعهده يا مليتس ، ماذا تعني به ؟ ألست أومن بآلهي الشمس والقمر ، وهي عقيدة سائدة بين الناس جميعا !

— إني أؤكد لكم أيها القضاة أنه لا يؤمن بهما ، فهو يقول إن الشمس كتلة من الحجر ، وأن القمر مصنوع من تراب !

يتبع

زكي نجيب محمود

(١) هذه إشارة الى فلسفة سقراط في الفضيلة . وملخصها أن الفضيلة هي العلم ، فيكفي أن تعلم الخير لتعمله ، فان وقع سوء من انسان يكن هذا دليلا على جهله بالفضيلة لأنه يستحيل أن يعرفها ولا يعملها

ذكرى ميلاد

عنـــد الثلاثين

للأستاذ محمد سعيد العريان

لشدّ ما أعياني السُّرَى !

منذ تسع وعشرين أُصعّد في الجبل وما بلغت . أتراني الى القمّة أدبّ دبيبي ، أم قد جاوزتُها وما أدري ، فأنا منحدر أتدأدأ من جانبها الى بطن الوادي .. ؟

يكتنفني الغيبُ فما أعرف أين يومي من أمسه ومن غده . أما أمس فقد خلعتُه عني ، وطوته الأيامُ طيَّ مرقعةٍ بالية فما تراه إلا خُلقاناً مركومة كالميت لفّته أكفانه . وهل الماضي إلا الجزءُ الذي مات منا ؟

وأما الغد . . . فمن لي بما هناك ؟ إن الأحلام لتكذب ، فما أحسبها كانت تتراءى لي إلا من دنيا غيرِ دنياي ليس من أيامها يومي ولا غدي

هــذه الأيام صرعى على مدرجة الزمن ، وما تزال المنى تصطرع في رأسي !

يالي من الأيام ! لشدّ ما كانت تسخر منّي إذ تمدّ لي أسبابَ المنى ، حتى إذا هممتُ لم تكن عثراتي إلا أيامي !

إنقشعي أيتها الغيوم واكشفي لي عما وراءك ؛ إن لي أمنيةً هناك !

***

إني لأراني كأنما لبسني النوم ، فأنا من الرؤيا في دنيا غير التي أعرف ، وناس غير هذا الناس ، وثَمّت طفلٌ يعدو خلف فراشة ، أتراه مدركَها ؟

لقد آب فارغ اليد ، ولكن على شفتيه ابتسامة !

وأقبل يتعرّفني وما كانت به اليّ من حاجة

قال : « من أنت ؟ »

قلت : « أما تعرفني ؟ »

قال : « نعم ، فمن تكون ؟ »

قلت : « فانظرْ في مرآتك لعلك واجدٌ فيها الجواب . »

ونظر ونظرتُ من خلفه ، فما كان في المرآة إلا وجهُ الطفل الضاحك

ولوى رأسه وعاد ينظر اليّ ويقول :

— « لستَ هناك ، وما أُراني أعرفك ولا تعرفك مرآتي »

ورفّت الفراشة فانطلق يعدو وراءها والابتسامة على شفتيه !

يا طفولتي التي فرّتْ بأسعدِ أيام الحياة ، ليتك كنتِ تعرفين !

***

وعاد الطفل فتًى يخطر ريّانَ الوجه مُشرقَ الجبين ، فازْوَرّ إذ رآني على الطريق

قلت : « أتنكرني يا فتى ؟ فانني صاحبك ! »

قال : « متى ؟ فما أظنني عرفتُك ! »

قلت : « ذاك يومَ التقينا على السفْح والشمسُ ضاحية ، وتصاوير الزّهر ترفّ من أجنحة الفراشة »

وابتسم الفتى ومرّ بيمناه على جبينه وهو يقول :

— لعليّ أذكر من بَعدُ ! »

وانطلق يغنّي جذلان

يا نضارةَ الصبَى وبُكْرَةَ الشباب ، ليتكِ إذ تولّيت عابثةً ناعمةً بالحرّية — كنت تدْرين مَن هناك !

***

وأقبل من بعدُ شابٌ يبتسم . ما أشبهه بصاحبه !

قلت : « ها أنت ذاك ، أما تعرفني ؟ »

قال : « كأني رأيتكَ من قبل ، بربّك مَن تكون ؟ »

قلت : « فانك ماتزال تنكرني على ماصحبتُك زماناً ولمّا يَنقض عهد طويل ! »

ولم أجدْ جوابي ؛ فقد لوى الشابُ رأسه يتابع بعينيه فتاةً تخطر ، ثم انطلق مُهْطِعاً وراءها ونفسي تتبعه

يا لله ! لكأنها هي . . . !

***

وتلاشى الوجودُ من أمامي فلم أَعدْ أرى غير وجه ضاحكٍ ، وطلعةٍ مشرقة ، وعينين تُشعّان النور من وجه الفتاة

ورأيتها تدنو مني وفي وجهها كلام …

قلت : أما تزالين تذكرين يا فتاة ؟ يا للنفس العطوف ! »

قالت : أئنّه لأنت ؟ لله صَبرُك ! »

وانقضّت كلماتُها على صدري بالهم والوحشة والعذاب ، وكأنما اجتمع منها تاريخُ سبعِ سنين طوال ، ما يزال في القلب منهنّ جراحٌ تنزف !

وانثالت الذكرياتُ على نفسي تتمثل من مشاهدها قصةً

غرام ثائر، أغفلها منشئها قبل أن يبلغ بها إلى نهاية

ورحت أنكت الأرض بالعصا، كأنى أفتش تحت التراب عن الجزء الذى مات من قلبى! ورأيت ظلها على الأرض، فاستحييت أن أرفع رأسى وفى عينى دموع!

يا للشباب من حب بلا رجاء! أوَضيع أنضر أيام الحياة مصبوباً على نفسى، أبحث عن أهون ما فى الحياة؟

وأين الرجولة إن بذلت شبابى ونفسى لأعدو فى ظل فتاة؟ أتراها تجد فقدى؟

إن المرأة للرجل إن هى إلا وحى المجد ومطلع الأمل، فاذا عادت لهفة ودموعا فما هى امرأة، ولكنها اليأس والحرمان والخيبة!

وتذكرت صاحبى الذى انفلت منى مهطعاً إلى فتاته، فاذا هو أمامى والفتاة الى جانبه ذراعاً إلى ذراع

قال: «ما تقول لنفسك؟»

قلت: أو تسمع همس النفس ونجوى الضمير؟»

قال: «قد علمت بعض هذه النجوى... أفكنت تتحدث بما تتحدث إلى نفسك، لو لم تكن هذه الشعرات البيض تخفى وتلوح فى فوديك؟»

قلت: «أو تراها؟... فاسأل صاحبتك عن خبرها؛ فهل جاءك أن هذا الشيب الباكر يدل إلا على شباب القلب؟ ما أحسبك تعلم حتى تنبئك الشعرة البيضاء!»

واستضحك الفتى والفتاة ...!

***

وتلاشى الوجود ثانية من أمامى! وإذا أنا فى دنيا غير دنياى، وناس غير هذا الناس؛ وإذا المرآة أمامى تجلو لى ما تجلو (الخيالة)، وكأنما اجتمع بها فى زمان ومكان تاريخى كأنه على الأرض منذ تسع وعشرين بماضيه وحاضره، وران ضباب أنفاسى على ثلث المرآة

وإذا فيما ظهر لى من المرآة طفل يعدو خلف فراشة، ماينفك يقفز ويثب

وغلام يخطر مغنياً جذلان، ما يعنيه إلا الكرة يرتق فتوقها، واللدات من الصبيان يتجاذب وإياهم أسباب المسرة فى الحارة وعلى ناصية الطريق

وشاب باسم الثغر منبسط الأسارير دنياه هذه الفتاة، له منها فى النهار مشغلة وفى الليل مشغلة

ثم ... ثم هذا الوجه الذى يعرفه صحابتى، على شفتيه ابتسامة عابسة، وفى عينيه سر يبالغ فى الاستخفاء، ومن وراء جبينه أمانىّ تصطرع، ودنيا يموج بعضها فى بعض

ليت شعرى أهذه هى الحياة، أليس فيها أحسن مما رأيت، أهذا كل ما هناك؟

ياضيعة المنى إن كان الغد يوماً مكرراً مما فات!

أين المثل الأعلى الذى جهدت فى تخيله، وأعيانى الكد فى البلوغ اليه؟ أترى البشرية الضالة قد حطمت تمثاله، وخربت هيكله، أم لا يزال قائماً هناك مختبئاً خلف الغد؟

محمد سعيد العريان

ذكريات

دمه العربى ...

للأديب حسين شوقى

حينما كنتُ فى باريز أتلقى دراسة القانون تعرفتُ بالفندق الذى كنتُ أقيم فيه بالحىّ اللاتيني (حىّ الطلبة) بطالب اسبانى، وقد دفعتني إلى حب التعرف به معرفتى للغة الاسبانية، (فقد قضيتُ خمس سنوات باسبانيا)، والميل إلى التمرن عليها. كذلك جذبتني إليه سيماه العربية كسمرة بشرته، وعيونه السوداء، وهى فى حدتها كعيون البدو فى الصحراء، وجذبني إليه اسمه العذب الذى ينتهى بحرف «الثاء» إذ كان يدعى مونيوث، وهذا الحرف لايوجد على ما أعلم — إلا فى اللغة العربية، فورثته الاسبانية عنها..

كنا نقضى الليل أنا وهو فى كثير من الأحيان، فى مقهى ليلى جميل يديره بعض الصينيين بالحىّ اللاتيني، ذلك الحى الذى لم يكن تخلّى بعد لحى مونبرناس (حىّ الشعراء والفنانين) عن إمارة الليل..

وكان مجلسنا يضمّ أيضاً طالبين اسبانيين، وطالباً آخر من جزر الفلبين..

وا أسفاه على تلك الليالى الغابرة التى قضيناها فى المتاع واللهو! بينما كنا ذات ليلة جالسين كالعادة فى المقهى ننعم بالرقص والموسيقى، إذا بأحد الشبان يصفع صديقته وقد رآها تتبادل النظرات غير المشروعة مع شاب آخر. فغضب مونيوث لهذا المنظر، وهمّ بالتدخل فى الأمر لولا أننا أمسكنا بسترته لأننا كنا نخالفه الرأى اشفاقاً على العاشق المخدوع الذى لم يقدم على عمله فى اعتقادنا، إلا تحت سلطان الغيرة..

وقد دفعنا هذا الحادث إلى الخوض فى موضوع الغيرة فأطبق رأينا على أنها شعور طبيعى يلازم الحب، وعلى أنها مقياس حرارته الصادق، بخلاف مونيوث الذى كان يرى فى الغيرة شعوراً أولياً همجياً يمكن القضاء عليه بالتربية والتهذيب كما قضت المدنية من قبل على بعض عيوب البشر الأولى..

فقال عندئذ فرناندو — الطالب الفليبيني — موجهاً الكلام لمونيوث:

إذا كنت ياصديق لا تغار فما بالك تحجب عنا حبيبتك نانيت؟

فبُهت مونيوث لهذا السؤال المفاجئ وتلعثم قائلاً:

أنا لا أحجب نانيت بل هى التى تعرض عن الحضور لأنها لاتحب الرقص..

فصاح ريكاردو، أحد الطالبين الآخرين:

يا للعذراء! هل هناك فتاة تبغض الرقص؟ إن رجلىّ البائستين لم تعودا تحملانى من كثرة مارقصت مع صديقتى سيمون!

فقلت بدورى لمونيوث:

ولكنى لم أشاهد صديقتك نانت هذه!

فتدخل فرناندو قائلاً:

إنه يخاف عليها يا عزيزى كما تخاف القطة على صغارها

ثم استمررتُ موجهاً كلامى لمونيوث:

لا يمكن إلا أن تكون غيوراً ياصديق، ففى عروقك الدم الشرقى العربى الفائر..

ولكن مونيوث أصر على إنكاره الغيرة كما أنكر الدم العربى، واعداً إحضار نانيت معه فى أقرب فرصة...

ولكن مونيوث طبعاً لم يف بوعده..

***

تعرفت بعد ذلك بأيام بنانيت هذه بالفندق، إذ أتت لتزور مونيوث وكان إذ ذاك معتل الصحة، فعذرت عندئذ صديقى لحرصه على نانيت، لأنها كانت جميلة الى حد بعيد، بشعرها الذهبى المنفوش، وعينيها الخضراوين اللتين كأنهما عينا قطة أنقرية..

ولما كنا فى ذلك الوقت فى أواخر شهر ديسمبر، وضعنا ذات ليلة برنامج سهرة فى ليلة رأس السنة، ووعدنا مونيوث باصطحابه نانيت فى تجوّلنا تلك الليلة بمقاهى باريز الليلية.. على أننا شككنا فى هذا الوعد أيضاً.. ولكن حينما جاءت الليلة الموعودة، أقبلت نانيت متأبطة ذراع صديقها! بدأنا طوافنا بالذهاب إلى ملهى «الطاحونة الحمراء» حيث كانت الممثلة الاسبانية الرشيقة «راكل ملر» تخلب الباريزيين بصوتها الشجىّ ورقصها السماوىّ..

ثم انتقلنا بعد ذلك الى مقهى قريب من «الطاحونة الحمراء»

يديره بعض أشراف الروس الذين هاجروا من بلادهم على أثر قيام النظام الشيوعى فى روسيا ؛ وكان المحل غاصاً بالأجانب والفرنسيين على السواء الذين أتوا ليستقبلوا السنة القادمة بين المرح والسرور عساها تأتى لهم بالسعادة . . . ؟!

جلسنا فى البار الذى كان مرتفعاً حتى نستطيع أن نشرف على المرقص بأجمعه . . ثم شاهدت بعض أصدقائى من المصريين جالسين بالقرب من حلبة الرقص ، فانتقلت الى مائدتهم لتحيتهم . . . ولكن لم يمض زمن طويل على وجودى معهم حتى سمعنا جلبة قوية آتية من جهة البار ، فذهبت لفورى الى هناك فاذا بأصدقائى الأسبان يتشاجرون مع بعض الفتية الفرنسيين ، وقد تمكن الحاضرون من تفريقهم بعد جهد كبير دون الالتجاء الى البوليس . . أما سبب المعركة فكان نانيت ! والمحرك الأول هو مونيوث !

غازل شاب فرنسى جميل نانيت ، ولكن مونيوث لم يفعل شيئاً وقتئذ برغم ملاحظته للأمر ، وذلك عملاً بمبادئه السلمية وتغلباً على الغيرة المرذولة ! ولكن مونيوث المسكين لم يطق صبراً حينما شاهد نانيت تبتسم بدورها لمغازلها ، فأفلت منه جواد الغيرة الجامح . . فأمسك مونيوث بكرسى وقذف به الشاب الفرنسى . عندئذ هب بعض الفرنسيين الحاضرين للدفاع عن مواطنهم ، وكان بغض الفرنسيين للأجانب شديداً فى ذلك العهد ، فهب الأسبان بطبيعة الحال للدفاع عن مونيوث

انتقلنا بعد ذلك الى صيدلية ضمدت فيها الجراح وأهمها جرح بليغ فى شفة مونيوث السفلى ، إذ كنا عازمين على السهر الى آخر الليل حتى لا نستقبل السنة الجديدة بمثل هذا الحادث المكدر . . ثم قصفنا طويلا فى أحياء باريز المختلفة

سألت مونيوث ونحن فى طريق العودة الى الفندق ألا يزال ينكر الغيرة ولا يؤمن بدمه الشرق العربى ؟ فأومأ برأسه اعترافاً بهزيمته أمام الغيرة ، وبما يخالط دمه الاسبانى من دم عربى حر . .

واكتفيت بهذا الايماء ، فان الكلام كان يؤلمه ، لأن فمه لا يزال دامياً ، ولعل قلب مونيوث المسكين كان أدمى من فمه ! . .

كرمة ابن هانى — حسين شوقى

من شعر الشباب

الطائر السجين

للأستاذ محمود الخفيف

راسفٌ فى القيد موصول الأنين ... مطرق الهامة فى يأس حزين
تلمح الحيرة فى نظرته ... نظرة اللوعة والغيظ الدفين
وترى الثورة فى إذعانه ... وهو بالأذعان من قبلُ ضنين
ناسل الريش نحيل شاحب ... ذابل المقلة محزون الجبين
ساهم طوراً وطوراً راقص ... رقصة المُوثَقِ بين الموثقين
سائل عن ذنبه فى حسرة ... وسكوت هو كالنطق مبين
نائح فى يأسه ملتمس ... رحمة الغادين بعد الرائحين
يحسب الرائى إليه مشفقاً ... يعرف الرأفة بالمستضعفين
فيرجِّى الغوث فى إقباله ... ولقد يرجى مع اليأس اليقين
فاذا مر به فى غلظة ... وجمود عاد مكروب الحنين
يتمنى الموت فى محنته ... ضجعةُ الموت خلاص اليائسين
وإذا أبصر سِرباً عابراً ... وهو فى السجن رهين مستكين
هز للطير جناحيه كما ... جرَّرَ الأغلال فى الأسر سجين
نسى القضبان فى لهفته ... ومضى يسبح بين السابحين
رده السقف سريعاً فهوى ... طارفَ العينين مكتومَ الأنين
وكسا ريش جناحيه دمٌ ... من جراح الصدر أو نضح الوتين
وإذا غنى لديه طائر ... لم يذق قبلُ عذاب الراسفين
بلغت لوعته غايتها ... وتوالى النوح والدمع السخين
يعرف المحزون أقصى حزنه ... حين يمسى فى قبيل ضاحكين
أيها العانى برغمى أن أرى ... ما تلاقى من عذاب وشجون
أيها الطائر مالى حيلة ... ليت من صادوك يوماً يشفقون
حسبوا أنك فيهم ناعم ... أولا تأكل مما يأكلون ؟
أولا تمسى لديهم آمناً ... وترى الأحسان فيما يصنعون ؟
قفص تصدح فيه سالماً ... أين من زينته سود الوُكون
وصحاف وشراب طاهر ... وهدوء لم ينله المترفون
قسما لو حاسبوا أنفسهم ... لمضوا عن ذنبهم يستغفرون
أين هذا القيد من حرية ... هى أحلى لك مما يصفون

تجد القسوة فيما أحكموا … ومعانى الظلم فيما يدّعون
وتعاف الضيم فى نعمتهم … ولو اسْطَعت تخيرت المنون
وترى الشهد لديهم علقما … وهمو عن غيهم لا يرجعون
رُبَّ يوم عضك الجوع به … كان أشهى لك مما يبذلون
أين ما تلقاه فى أغلالهم … من ظلال كنت فيها وعيون ؟
وفضاء كنت فيه مطلقاً … ومَقيل لك فى وكر مصون
وطعام لم يكن ذا غصة … لم يكدره لديك الطاعمون
أتُرى القضبانُ فى قسوتها … كوثير العشب أو خضر الغصون؟

* * *

يا عدو الأسر فى فطرته … يا طليقا بات فى القيد رهين
ان تألمت لما تلقى به … لن تراهم بك يوماً حافلين
كنت فى جوك حراً آمناً … فتلقفتك شباك الصائدين
قتل الأنسان ما أظلمه ! … دأبه العدوان والغدر المهين
يكره الظلم إذا ما مسه … وهو إن يأمنه شر الظالمين
يتحدى الطير فى أجوائها … و يصيد الوحش فى الغار الكنين
أو لم يكف ضحايا بغيه … من بنيه الوادعين الآمنين ؟
يا أسيراً يذرف الدمع دما … لست فى بلواك معدوم القرين
كم سجين بات يبكى حظه … مثلما تبكى ، ويُبكى الناظرين
هذه الدنيا لعمرى قفص … لبنيها العُزل المستضعفين
قد قرأنا الظلم فى غابرها … فى فتوح الغاصبين الناهبين
فكرهناه ونددنا به … وبرئنا من ضلال الغابرين
أولا نمرح فى أصفاده … ونراه اليوم فى المستعمرين ؟
وإذا الناس على فطرتهم … ولئن راق خيال الواهمين
وإذا العدل سراب لامع … طالما بتنا به منخدعين
قف بهذا الشرق وانظر كم ترى … فيه من بغى ومن حكم لعين
اسأل الوادىَ عن محتله … وفلسطينَ عن المغتصبين
واذكر الهند ففى محنتها … حجة تنسخ قول المبطلين
دخل السجن بريئاً شيخها … ساخراً من باطل المستكبرين
حمل العبء على أسقامه … وكفاه لو دروا عبء السنين
ويميناً لو نسوا أطماعهم … لجثوا بين يديه نادمين
وكأيِّنْ فى الورى من آية … ويمرون عليها معرضين !
يعرف الأغلال من كابدها … وعرفناها كراماً صابرين
جرّب المحتل فينا مكرهُ … ورمانا بيننا الغادرين
وأتى الثورة من مقتلها … فوقفنا دونها مستبسلين
فرمانا بلظًى من ناره … وسقطنا عشرات ومئين
وافتدينا الحق فى هودجه … واحتشدنا حوله مستشهدين
ورفعنا فوقنا رايتَه … وتزاحمنا عليها مقسمين
ورأى الغاصب أنا لم نكن … بالخياليين أو باللاعبين
ضاقت الأنفس حيناً وبدت … نُذُر الرجفة للمستهزئين
والتقى الأشبال فى غضبتهم … ومشوا نحو المنايا طائعين
أيقظوا الثورة لولا حكمة … من بنيها السابقين الأولين
أفسدوا كيد المحيطين بهم … فأتوا غيرانَهم منكفئين
قسما ما أجّلوها خشية … ولئن طال حديث المرجفين
ليس من يبذل طوعا دمه … بالذى يرهب بأس المعتدين
كنت فيهم ، فان لم ينتهوا … بعثوها فى غد مستأنفين

حنين إلى الوطن

للشاعر الحجازى أبى يعرب المدنى

أحن الى ذكريات الحجاز … حنين الفطيم الى ظِئره
أحن اليه حنين الحما … م اذا ما تغرب عن وكره
اذا هَبَّ من جانبيه النسيم … تروّحت دنياى فى نَشره
يرفرف روحى على ساحليه … فيغترف الشعر من بحره
وما ذبل الوجد حتى يجف … لسان القصائد عن ذكره
ألا يا سقى الله أرض الحجاز … بوطفاء تغدق فى قُطره
ويا حبذا أن يفيق الحجاز … فيا طال ما نام فى سُكره
اذا ثاب ثابت جميع البلاد … وسارت الى المجد فى إثره
يقال تباشيره أقبلت … طلائعها الغرُّ فى فجره
وأنّى له أمل أن يفيق … وقد يئس الناس من أمره ؟
وما ارتبتُ حتى رأيت الزمان … يسوّل لى اليأس من مكره
وغيرى إذا ازورَّ عنه المنى … تَشَفَّع بالدمع فى عذره
أناتى تَبَسَّمُ تحت القطوب … إذا ما تذمرتُ من شره
وأطلب حقى بحد الحسام … إذا نام ذو الثأر عن وتره
الى أن تلين قناة الزمان … ويعدل إذ ذاك عن جوره

لويدجى بيراندللو

LUIGI PIRANDELLO

صاحب جائزة نوبل لعام ١٩٣٤



منح الكاتب الايطالى بيراندللو جائزة نوبل للآداب، فجاء ذلك القرار برهاناً جديداً قوياً على خطر الدور التجديدى الذى أداه بيراندللو فى تطور المسرح الايطالى المعاصر

فقد كان المسرح الايطالى منذ عام ١٨٧٠ حتى الحرب العالمية يعانى تدهوراً شديداً حتى دفع ذلك الناقدَ بنجامان كرميو الى أن يعتبر المسرح الايطالى أثناء هذه الفترة الطويلة خارجاً عن دائرة الأدب الصحيح . والواقع أن من العسير أن يشعر الانسان بوجود فن مسرحى فى ايطاليا خلال نصف القرن الذى سبق الحرب العظمى إلا بأعمال الكاتب الكبير جبرييل دانونزيو ، وبعض أعمال عدد من الكتاب مثل جيا كوزا Giacosa وبراجا Praga وبراكو Bracco وسمبنللى Sem Benelli

لم يكن التأليف المسرحى ضعيفاً فحسب ، بل إن محاولات الكتاب الخائرة كانت تعيش كَلاًّ على الآداب الأجنبية ، وتمعن فى تقليد الكتاب الفرنسيين ، وأخصهم دوماس الصغير وأوجييه ، ثم الكتاب الروس والكاتب النرويجى ابسن Ibsen فيما بعد

وكان المسرح الايطالى فى هذه الفترة من العبودية ، بحيث كان يتغير بتغير العوامل المؤثرة فيه . فعندما قوى المسرح الطبيعى théâtre naturaliste فى فرنسا ، لقى ذلك التغير صداه السريع فى المسرح الايطالى فسادت روح الواقعية Vérisme أعمال المؤلفين ، وكانت هذه الروح من القوة بحيث تشبه الثورة على فن دوماس وأوجييه اللذين كانا يطبعان المسرح الايطالى بطابعهما حتى ذلك الوقت

على أن التحرر من سيادة فن دوماس وأوجييه لم يكن إلا بنقل السيادة من يد الى أخرى ، وكانت هذه اليد هى فن ابسن الذى ظل يغذى المسرح الواقعى الايطالى بمشاكله التى يعالجها ، وبمواقف أبطاله حتى أوائل الحرب الماضية

كان للمسرح الواقعى بعض القوة ، إلا أن تكرار معالجة المشاكل التى عالجها ابسن فى قصصه خلق نوعاً من الملل الشديد فقامت محاولات جديدة لبناء مسرح شعرى théâtre poélique كان من زعمائه قبل الحرب سمبنللى ، وبعد الحرب أركول مورسلى Morsélli (١٨٨٢ — ١٩٢١) . على أن هذا المسرح أيضاً لم يؤد الى الغرض المنشود ، لأنه بالغ فى روما نتيكيته حتى كانت قصصه أشبه بالأساطير القديمة ، وكان أظهر عوامل الضعف فيه انطفاء الأسلوب وخطأ التحليل . لذا ظل الرجاء معقوداً على طبقة أخرى من الكتاب حتى لاحت شمس النهضة الجديدة على يد (المسرح الساخر) théâtre grotesque الذى كانت فكرته نواة أدب بيراندللو ، فاليه يرجع الفضل الأول فى تحرير القصة المسرحية الايطالية مما يسمى الفكرة التصويرية prêjugé photographique التى خلقتها النظرة الواقعية والرجوع بالقصة الى معالجة الموضوعات وتحليل العواطف والنزعات الانسانية بطريقة أكثر حرية وانطلاقاً . طريقة تقوم على أساس من الدعابة والسخرية

وجاء بعد ذلك بيراندللو فاستطاع بعبقريته أن يبنى على تراث (المسرح الساخر) فلسفة خاصة هى وليدة تجاربه فى الحياة ، وآلامه النفسية ، وقراءاته الواسعة . وأن يركز هذه الفلسفة فى مذهب فنى عرف باسم (مذهب الدعابة) hunorisms أو باسم (مذهب بيراندللو) Pirandillisme الذى رفع به مسرح بلاده بعد انحطاط نيف على نصف قرن كامل

لقد بلغ بيراندللو الآن سن الشيخوخة ، ففى شهر يونيو الماضى أتم السابعة والستين . وقد ابتدأ الكتابة وهو فى العشرين من عمره . وكان إنتاجه من الغزارة بحيث أنه كتب إلى الآن أربعمائة أقصوصة ، وعشر قصص ، وثلاثين رواية مسرحية ! ومع كل ذلك كان اسمه منذ عشرة أعوام يكاد يكون مجهولاً فى عالم الآداب ! على أن بيراندللو قد استطاع فى الأعوام الأخيرة — بفنه المسرحى على الخصوص — أن يشق طريقه الى المجد ، ويكوّن له أتباعاً فى أوربا بأسرها . وأن ينال أخيراً أعظم الجوائز الأدبية فى العالم أجمع

***

ولد پيراندللو فى بلدة أجريچانتى Agrigente بجزيرة صقلية فى اليوم الثامن والعشرين من شهر يونيو عام ١٨٦٧ . وعندما شب درس الأدب فى روما . ثم سافر إلى ألمانيا حيث حصل على شهادة الدكتوراه فى الآداب من جامعة بن Bonn ، ولما عاد إلى بلاده عين أستاذاً فى (المدرسة العليا للبنات) بروما ، وبقى فيها أربعة وعشرين عاماً من عام ١٨٩٧ إلى عام ١٩٢١

ابتدأ پيراندللو حياته الأدبية قصصياً يكتب القصص الطويلة والقصيرة ، ولكنه تحول فيما بعد إلى الكتابة المسرحية فلقى عن طريقها سبيله إلى الشهرة العالمية . وقد كتب پيراندللو من القصص الطويلة قصة Feu Mathias Pascal (١٩٠٤) و Son mari (١٩١١) و On tourne (١٩٢٤) و Un, personne, cent mille (١٩٢٦) وغيرها. أما قصصه القصيرة فانها تظهر تدريجياً مجموعة تحت عنوان رئيسى ثابت هو (حكايات لعام) Nouvelles pour un an وأشهر هذه المجموعات Innocentes و Livret Rouge و Vieille Sieile،

أما الروايات المسرحية فقد ابتدأ پيراندللو الكتابة فيها عام ١٩١٢، فكتب رواياته Le devoir du médecin و Citrons de Sicile و L'étau ثم كتب La raison des autres (١٩١٣) ثم Le bonnet de fou (١٩١٤) . على أن هذه الروايات كانت فى الواقع بمثابة الخطوات الأولى لفنه الذى لم يزدهر إلا ابتداء من عام ١٩١٧ حين كتب رواية Chacuu sa vérité . وتوالت بعد هذه الرواية رواياته المسرحية الرائعة التى أشهرها Le plaisir d'être honnête (١٩١٨) و L'homme, la bête et la vertu و La greffe و Tout pour le mieux (١٩١٩) و Comme avant, mieux qu' avant (١٩٢٠) و Six personnages enquète d'auteur (١٩٢١) و Vêtir ceux qui sonl nus و Henri IV (١٩٢٢) و La vie que je t' ai donnée (١٩٢٣) و Comme ci (ou cemme ça) (١٩٢٥) و Diane et la Tuda (١٩٢٦) و L' Amie des femmes (١٩٢٧) الخ . . .

***

كان أظهر ما يميز فن پيراندللو منذ قصصه الأولى ميله إلى الدعابة ، يسعى إليها بغريزته كلما استطاع إلى ذلك سبيلاً . على أن فكرة پيراندللو عن الدعابة قد تطورت وتحددت بتحوله إلى المسرح واهتمامه على الأخص بكتابة الروايات المسرحية ونبوغه فيها . فقد كان پيراندللو فى البداية يلجأ إلى الدعابة إجابة لنداء طبيعته الساخرة . لكنه اقتصر فيما بعد — وخصوصاً فى مسرحه — على اختيار الموضوعات التى تثير حقاً سخرية المرء ودعابته . ثم يجعل بعد ذلك من هذه الموضوعات مجالاً واسعاً لأطفاء ظمئه الطبيعى فى حب الدعابة . وقد اتفق النقاد على أن عبقرية پيراندللو هى من مهارته الفائقة فى حسن اختيار هذه الموضوعات وتوخى الصدق فيها

ويجب أن نلاحظ أن رواية پيراندللو لا تصلها بالرواية الهزلية صلة ؛ ذلك أن الناحية النقدية هى الغرض الأسمى من الرواية ، فهى لم توضع لتبعث الضحك والمرح الى نفوس المشاهدين كما هو الحال فى الرواية الهزلية ، بل لتكشف لهم بطريقة تحليلية لاذعة عن حقيقة الطبيعة البشرية ونواحى الصراع بينها وبين تقاليد المجتمع وموجباته . وقد كتب پيراندللو عام ١٩٢٠ يشرح ذلك قال :

« إننى أعتقد أن الحياة مهزلة محزنة . لأننا نرى فى داخلنا دافعاً خفياً لا ندرى سببه يدفعنا الى أن نخدع أنفسنا على الدوام ، فنخلق لنا شخصيات وأفكاراً تختلف باختلاف كل فرد . ثم لا نلبث أن يبدو لنا أن ما فعلنا ليس إلا وهما وخديعة . إن فنى ممتلىء بالشفقة الحارة على أولئك الذين يخدعون أنفسهم . على أننى لا أستطيع أن أمنع نفسى من أن ألحق بهذه الشفقة سخرية قاسيةً من الأقدار التى تفرض على الانسان فرضاً هذا الغش والخديعة »

وفن پيراندللو يعالج مشكلة من أكبر مشاكل الطبيعة البشرية . تلك هى مشكلة (الشخصية) ؛ فكم ينتاب شخصياتنا كل يوم من التغير والتقلب ! وكم يعانى الانسان فى علاقاته بسائر الناس الذين يختلف بعضهم عن بعض فى العادات والطباع ، فيرى المرء نفسه مرغماً أن يلبس مع كل فرد ولكل حادث ولكل زمن شخصية جديدة حتى يستطيع الحياة فى هذا العالم . فپيراندللو حين معالجته لمشكلة الشخصية تراه يقارن بين طبيعة الأنسان وما تمليه عليه مقتضيات البيئة ومظاهر الحياة وبين ما يتبع ذلك من صراع ، وما يتخلل ذلك الصراع من رياء الحياة الانسانية وصغائرها

يريد پيراندللو أن لكل انسان شخصيتين كامنتين فيه ، هما

أبداً فى تناقض مستمر وحرب دائمة

أولاها : (حيوانيته) أى شخصيته الطبيعية بغرائزها وشهواتها

وثانيتهما (انسانيته) أى شخصيته الأجتماعية التى تحتم عليه أن يخضع للتقاليد والأوضاع والمبادىء الجامدة ، وكل ما اصطلح المجتمع على تمجيده وتقديسه

ويرى بيراندللو أيضاً أن الفرد يعتبر فى حالته الطبيعية حين يتبع غرائزه وشهواته و (حيوانيته) ، فان خالف ذلك وحاول أن يكون (انساناً) يتقيد بنظم مخصوصة ، ويخضع تصرفاته لقواعد مرعية ، فهو فى نظره قد خرج على طبيعته ، وأوقف سير (حياته الحقيقية) ليدخل (حياته الوهمية) التى يتصور أنها الحياة الحقيقية

وهنا يجب أن نتساءل : ما الذى يرغم الأنسان أن ينتقل من (حياته الحقيقية) الى (حياته الوهمية) أو من (حيوانيته) إلى (انسانيته) ؟

إنه الضمير . الضمير فى نظر بيراندللو هو الذى يفرق بين الانسان والحيوان ، وبين الانسان والنبات . الضمير الذى يولد معنا يوم ميلادنا ، ويصاحبنا حتى الموت هو الذى يفسر حياتنا . هو الذى يقيدها بالأوضاع ، ويخضعها لناموس الخطأ والصواب . ولكن هل استطاع الضمير أن يكبح غرائز الانسان وشهواته ويمنعها من الظهور والانفجار بين حين وآخر ؟ لا . لم يستطع الضمير ذلك . فحيوانية الأنسان لا تزال كامنة فيه تتلمس الخروج كلما وجدت الفرصة المناسبة . وكثيراً ما تستبد بصاحبها وتعميه وتسيره فى الطريق الذى تشاء . ولذا يرى بيراندللو أن كل شقاء الأنسان النفسى إنما هو وليد وجود الضمير . فقد أراد الضمير أن يكبل الطبيعة الأنسانية بسلاسل التقاليد والأوضاع الأجتماعية ، بينما الضمير لا يعرف التقاليد ، ولا يخضع للأوضاع . فلا الضمير إذاً استطاع أن يميت (حيوانية) الفرد فتسود (انسانيته) على الدوام ، ولا هو سمح لهذه الحيوانية أن تتحقق وفق هواها ليحيا الأنسان (حياته الحقيقية) . وكانت نتيجة ذلك نشوء هذا الكفاح الدائم بين شخصية الأنسان الطبيعية وشخصيته الأجتماعية ، أى بين حيوانيته وانسانيته

هذا الكفاح القاسى بين الشخصيتين الكائنتين فى كل منا هو الذى يخلق الهم الممتزج بالابتسام ، والتشاؤم الممتزج بالسخرية ، وذلك هو أظهر ما يميز فن بيراندللو ويطبعه بطابع خاص . على أن هذا الطابع الخاص لم يمنعه من أن يكون ملتقى عدة تيارات فكرية كان لها تأثير كبير فى تفكيره . فغرابة شخصيات القصص تذكرنا بقصص الكاتب الروسى دستويفسكى والكاتب النرويجى إبسن . وطريقة تحليل نفسيات الأبطال والبطلات المضطربين الحائرين بين الحقيقة والخيال تبين لنا بأجلى بيان الأثر العظيم لنظريات العالم النفسى فرويد عن (اللاشعور) أو ما يسمونه (العقل الباطن) ، والعالم انشتين عن (النسبية) ، والفيلسوف برجسون عن (الحركة) ؛ كذلك فيها كثير من (ذاتية) الكاتب القصصى مارسل پروست

على أن هذا الكفاح يختلف نوعه فى نظر پيراندللو عند الرجل والمرأة . فالرجل تتغلب عليه (شخصيته الاجتماعية) وهو لذلك يحاول جهده أن ينظم حياته ويخضعها قدر الطاقة لأوضاع المجتمع . أما المرأة فتتغلب عليها (شخصيتها الطبيعية) وهى لذلك أقل من الرجل قدرة على سيادة نفسها وتقييد غرائزها وميولها . على أن هذا الاستعداد لدى كل من الرجل والمرأة هو عند پيراندللوا أمر نسبي ومؤقت . فالرجل لا يستطيع أن يمنع (شخصيته الحقيقية) من أن تحطم أحياناً القالب الاجتماعى الذى وضع نفسه فيه كما فى قصتى (شهوة الشرف) Volupté de l' honneur و (هنرى الرابع) Henri IV . وكذلك المرأة التى تسيرها طبيعتها تود من وقت الى آخر أن تكبح جماح عواطفها وشهواتها كما فى قصة : Vêtir ceux que sont nus

فأزمة بيراندللو المسرحية تحدث عند اصطدام شخصيتى كل فرد ، وهى تختلف — على ضوء ما ذكرنا — عند أبطال قصصه (أى الرجال) عنها عند بطلاته (أى النساء) . فالأزمة تحدث عند الأبطال — وهم كما سبق يخلصون للوضع الاجتماعى — إما حين يظهر لهم فجأة أنهم يحيون (حياة وهمية) على خلاف ما كانوا يتصورون ، حياة تخالف كل ما جبلت عليه (شخصيتهم الحقيقية) ، وإما حين تنفجر هذه الشخصية الحقيقية مرة واحدة وتخرجهم عن الوضع التقليدى الذى كانوا يحيون فيه . . . أما الأزمة عند البطلات فبالعكس تحدث حين يَرَيْن أنفسهن مرغمات على الخضوع لوضع مخصوص أو فكرة مخصوصة كما فى قصة : Comme avant, mieux qu' avant حيث نرى بطلة القصة مضطرة

[البقية على صفحة ١٩٩٢]

البريد الأدبي

ذكرى الموسيقى بوتشيني

مضت عشرة أعوام كاملة على وفاة الموسيقى الايطالى الأشهر جاكومو بوتشيني ، فقد توفى فى ٢٩ نوفمبر سنة ١٩٢٤ ، ولكن اسمه وفنه وموسيقاه مازالت تملأ الأذهان والأسماع . واليوم تذكر دوائر الفن والموسيقى بوتشيني ، وتكتب عنه وعن فنه الفصول والبحوث الفياضة . وكان مولد الموسيقى الكبير فى سنة ١٨٥٨ ؛ ودرس على أكابر أساتذة عصره مثل بازيني وبانكيلي ، ولبث مدى عصر أعظم شخصية فى الموسيقى الايطالية والموسيقى الغربية بصفة عامة ، وكان يشغل فى إيطاليا نفس المركز الذى كان يشغله معاصره ڤاجنر فى المانيا ، ويوهان شتراوس فى النمسا . ويعتبره النقدة الفنيون ثالث أقطاب التأليف الموسيقى فى العالم كله ، فأولهم ڤاجنر ، وثانيهم ڤردى ، وهو الثالث . وقد نالت أوبراته الموسيقية شهرة عظيمة ، ولا سيما « مانون لسكو » و « البوهيمية » و « لاتوسكا » و « مدام بترفلاى » وهى تجمع الى نزعة روزيني وڤردى الغنائية ، نزعة حديثة الى التعبير ؛ وكان بوتشيني موسيقى الحب المعذب ، وأروع قطعه ما كان يمثل القلوب الكليمة البائسة ؛ ذلك لأنه كان فى حياته الغرامية منكوداً معذباً ، وكان دائماً طائر القلب والعواطف ، لا يكاد ينضج فى قلبه غرام ، حتى يسارع الى غرام جديد . وكان صعب الرضى فيما يتعلق بالنصوص ، لا يكاد يعجبه نص مهما كان من الروعة ، ولهذا كان يجوب القارة باحثاً عن النصوص المختارة لتلحينها ، وقد غضب يوماً إذ أفلتت منه قطعة لبيير لوئيس انتزعها منه الفرد رينو ، وأفلتت منه أيضاً « بلياس وماليزند » لماترلنك ، ولكنه ظفر « بتوسكا » وهى من تأليف فكتوريان ساردو ، بيد أنه لم يكن راضياً عنها كل الرضى ، وقد ألف لها بعض أناشيد من عنده . ويروى أنه اضطر « اليكا » مؤلف « البوهيمية » الى حذف مناظر برمتها ، وتغيير كثير من النصوص . وقد تزوج بوتشيني من مدام « الڤيرا بونتورى » بعد فضيحة غرامية طويلة ، وكانت الڤيرا زوجة للسنيور بونتورى ، ولكنه هام بها رغم زواجها ، وبادلته الحب ، وحملت منه ، ثم فرت اليه ، ولم يستطع أن يتزوجها إلا بعد وفاة زوجها . وكان بوتشيني مع ذلك يبحث عن مخاطرات غرامية جديدة كلما أصابه السأم ، ثم يعود يائساً فيرتمى بين أحضان الڤيرا

وقد توفى بوتشيني فى بروسل ، فى ٢٩ نوفمبر سنة ١٩٢٤ ، بعد مرض طويل ، ودفن حسب وصيته فى قصره فى تورى دللاجو (شمالى إيطاليا) ، ولما توفيت زوجته الڤيرا فى سنة ١٩٣٠ دفنت معه فى نفس قبره

مكتبة نابليون وآثاره الخطية

عرضت أخيراً فى دار التحف المعروفة « باوتيل درووو » بباريس مجموعة فريدة حافلة لآثار الامبراطور نابليون بونابرت ومخطوطاته الشخصية ؛ وهذه المجموعة التى يملكها المسيو « برويه » والتى لا تضارعها أية مجموعة أخرى من آثار الأمبراطور ، تعرض الآن للبيع ، وفيها عشرات من الذخائر والتحف البونابارتية فى عصر الأمبراطورية ، ومعظمها مما احتوته مكتبة الامبراطور الشهيرة فى قصر ماليزون من الكتب النادرة الممهورة بتوقيع الامبراطور ، والوثائق الحربية والسياسية النادرة ؛ وهى تعرض تاريخ نابليون كله منذ كان ضابطاً صغيراً فى حصن ڤالانس حتى وفاته فى جزيرة سنت هيلانة سنة ١٨٢١ ، ومنها رسائل شخصية تصور ما كان عليه الامبراطور من وفرة فى السلطان والعزم ؛ ومنها رسائل غرامية كتبها نابليون الى « جوزفين بوهارنيه » التى غدت زوجته الامبراطورة فيما بعد ؛ وفيها يبدو القائد العظيم محباً ذلولاً يخضع لسلطان الهوى خضوع الطفل ، وكان أهم مالفت النظر منها رسالة كتبت على ورق أخضر بتاريخ يوليه سنة ١٧٩٦ وفيها يخاطب نابليون جوزفين بما يأتى : « ألست

روح حياتى ، وعاطفة قلبى ؟ إنى أؤمل أن أظفر منك برسالة هذا المساء ؛ وأنت تعلمين ياعزيزتى جوزفين أى سعادة آنسها لرسائلك ، وإنى لعلى يقين أنك تغتبطين بكتابتها . . سأسافر هذا المساء الى جبال التيرول ، الى ڤيرونا ، ومن هنالك الى مانتوا ثم الى ميلان ، لأظفر ثمة بقبلة ، فأنت تؤكدين لى أن القبلات ثمة ليست باردة ولكنها محرقة ... ماذا تصنعين فى هذه الساعة ؟ إنك تنامين أليس كذلك . وأنا لست بجانبك لكى أستنشق تنفسك ، وأتأمل ظرف محاسنك ، وأغمرك بالقبلات . إن الليالى بعيدة عندك طويلة ، ذابلة محزنة ؛ والى جانبك يأسف المرء أن ليس الليل بخالد ، فوداعاً أيتها الحسناء الرقيقة ، التى لامثيل لها ، والتى تسمو الى السماء ؛ وألف قبلة ناعمة ، فى كل مكان ، فى كل مكان . . .

وقد أثار عرض هذه المجموعة فى الدوائر الفنية والأرستوقراطية اهتماماً عظيماً ، وهرعت الجموع إلى « أوتيل دروو » ، تتنافس فى اقتناء هذه الذخائر ، ومنها كتب وسمت بشعار الأمبراطور ، ومنها كتب كانت لقادته واخوته ، وآله

فمتى نعنى فى المشرق بآثار عظائنا ، ومتى نعتبرها ذخائر مقدسة يتنافس المتنافسون فى اقتنائها ؟ ومتى تخرج إلى الضياء قبل كل شىء ؟

جائزة نوبل للكمياء

سبق أن أشرنا إلى أن جائزة نوبل الطبية منحت هذا العام لثلاثة من علماء الطب فى أمريكا ، وأن جائزة نوبل الأدبية منحت إلى الكاتب المسرحى الايطالى براندللو . ونذكر الآن أن جائزة نوبل للكمياء عن سنة ١٩٣٤ قد منحت أيضاً إلى أمريكى هو الأستاذ هارولد كليتون يور أحد أساتذة جامعة كولومبيا الشهيرة بنيويورك ، وذلك لأجل مباحثه واكتشافاته الخاصة بالهيدروجين الثقيل ؛ وبذلك تكون أمريكا قد ظفرت هذا العام بجائزتين من جوائز نوبل

هذا وأما جائزة نوبل عن العلوم الطبيعية فقد تقرر أن يوقف منحها هذا العام ، وأن ترجأ إلى العام القادم ، لأنه لم يتقدم لنيلها من العلماء من هو جدير بنيلها

لويجى بيراندللو

[بقية المنشور على صفحة ١٩٩٠]

الى مجاراة ابنتها — التى تظن أن أمها ماتت — فى اعتقادها أنها زوجة أبيها

وفى الفصول الأولى من روايات بيراندللو المسرحية ، نرى حوادث القصة غامضة أشبه ما تكون بالقصص البوليسية . وكل حوادث القصة تحدث فى هذه الفصول الأولى . فاذا ما جاء الفصل الثانى — وهو أعظم فصول القصة شأناً — ابتدأ دور (التنبه) prise de conscience . وفى الفصل الثالث — وهو عادة أقصر كثيراً من الفصلين الأولين — يكمل دور (التنبه) ويكون ذلك مصحوباً غالباً بحركة مسرحية عنيفة تحل بها العقدة المسرحية

فنواحى التجديد فى مسرح بيراندللو :

أولا : أن القصة لاتبلغ حدتها فى الفصل الذى يقوى فيه (الحادث) aetion بل فى الفصل الذى تقوى فيه (المعرفة) connaissance

ثانياً : أن القصة ترمى إلى إثارة المشاهدين عن طريق (اكتشاف) حقيقة كانت مجهولة عن طريق (الحركة) geste

ومن الحق أن نذكر ما يوجهه النقاد الى فن بيراندللو . فقد اتهمه ناقدوه بأن رواياته لاترتفع عن مستوى الدرام ، بل عن مستوى الميلودرام . وأنه اختار لقصصه موضوعات هى من التعقيد بحيث كان من العسير التصديق بأمكانيتها فى الحياة الانسانية الواقعة ، وأخيرا أن رواياته لا تخلو من بعض الملل لأن بيراندللو كان فيها (مفكراً) أكثر من اللازم

على أنه مهما قيل فى فن بيراندللو فانه لا يمكن إنكار أهمية مسرحياته وأثرها التجديدى فى المسرح العالمى مما جعل بعض قصصه الشهيرة يترجم الى خمس عشرة لغة أجنبية ! كما أن بيراندللو هو الكاتب الايطالى الوحيد الذى استطاع أن يحل المعضلة التى اعترضت كل الكتاب الايطاليين منذ عام ١٨٧٠ ألا وهى كتابة عمل أدبى يعالج موضوعات ويرسم شخصيات قومية بحتة وينال فى الوقت نفسه إعجاباً عالمياً

فكأن بيراندللو بنيله جائزة نوبل قد نال فخراً مضاعفاً . إذ بلغ مجده الأسمى وحقق أملاً عزيزاً من آمال وطنه

على كامل

أهم المصادر :

1) Benjamin Cremieux : Panorama de la littérature italienne contemporaine
2) Mlle. Th. Laignel. La littérature italienne
3) Encyclopaedia Britannica (1932)

القصص

من الأدب التركي

الزواج المبـــارك

ترجمة الآنسة « فتاة الفرات »

كنت سائراً يوماً وأحد رفقائي في شارع (بك اوغلي) أحد شوارع الآستانة الجميلة . وكان رفيقي على عادته يحدثني أحاديث مختلفة ، يحدثني عن نفسه وعن غيره أحاديث منها ما يقبل ومنها مايمج ويرد . وبينا هو يهدر في حديثه وقف فجأة وصاح :

ـ إلى أين ؟

التفت فاذا هو يكلم رجلاً طويل القامة محدودب الظهر ، كأنه قد تعب من الحياة ؛ أسمر اللون ، قد طال شعر رأسه ولحيته حتى خرجا عن الحد المألوف ، عليه بذلة لايعلم إلا الله ما لونها ، قد أثر فيها الغسل الكثير حتى اختلطت ألوانها وتهلهل نسجها

فقال له رفيقي :

ـ ألا يزال الحال على مانعهد ؟

فهز الرجل رأسه علامة الايجاب وارتسمت على ثغره ابتسامة الترح لا ابتسامة الفرح

فقال له رفيقي :

ـ بارك الله فيهم . وانصرف عنه

ثم التفت إليّ وقال هل أقص عليك قصة هذا الرجل ؟

فقلت له على مضض :

ـ هات ما عندك

فأخذ يقص على قصة الرجل ، يقصها بصورة مونقة ، لها من اشاراته اللطيفة ومن بيانه البديع خير حلية وأبدعها . قال : هذا الرجل من لداتي في السن ، ومن رفقائي في العمل ، كنا مأموري حساب في مصنع حديدي ونحن في نهاية العقد الثاني من عمرنا ، وكان مرتبه الشهري أربعة دنانير ، ولكنه كان بالرغم من قلة المرتب ذا زي حسنٍ وهندامٍ جميل ، فاذا ظهر زي كان أسبق الناس إليه . كان زيه أحسن أزيائنا جميعاً ، وكان يفوقنا طراً في العناية بثيابه وجسمه ، فكان يحلق ذقنه في كل يومين مرة ، وكان مغرماً باللهو كثيراً ، فاذا كان يوم الاثنين جاءنا بكل طريف من أحاديث لهوه ومرحه في بياض يوم الأحد وسواد ليله ، ولم نكن نجد عند أحد مانجد عنده من أخبار معارض الصور ومسارح التمثيل والمتنزهات

جاء في يوم جمعة صباحاً إلى الدائرة وهو تحفة في هندامه وآية في زيه ؛ كان في رجله حذاء لماع قد جعل حوله قطعة جوخ من قماش بنطلونه ، وحول رقبته عقدة من قماش أزرق اللون قد ربطها ربطة جميلة ، وجعل في وسطها دبوساً ماسياً على شكل نحلة جناحاها من ياقوت ، لعله قد ورثه عن أمه ، ومن جيبه الخارجي تدلى منديل حريري ذو ألوان جميلة ، وفي صدره سلسلة ساعة ذهبية رأسها في عروة صدارته وطرفها الآخر في جيبها ، وفي أصبعه خاتم زمردي ، وفي رأسه طربوش صغير قاتم الحمرة يختال بلذة لارتفاعه فوق ذلك الهندام الجميل

فاجتمعنا حوله ضاحكين نسأله عن سر هندامه الجميل وتأنقه الشديد في هذا اليوم ، فقال :

ـ سأذهب اليوم إلى متنزه « كاغدخانه » ، وكل ما أرجوه منكم أن تكونوا عوناً لي على الرئيس ليسمح لي بالذهاب ، فان التأخر يضرني كل الضرر

ثم مد يده إلى جيب معطفه وأخرج محفظة أوراقه وسحب من بينها ورقة « حمراء » اللون لوح لنا بها وهو يبتسم ويقارب ما بين جفنيه وينظر إلينا نظرة ذات مغزى ، ولكنه ضنّ علينا بسر تلك الورقة ، وأهمنا ما أهمه ، وأحببنا أن ينعم ذلك اليوم بنزهة ،

فذهب أحد أصدقاء الرئيس إليه ، ومازال به يكلمه فى شأنه حتى سمح له بالذهاب فى ذلك اليوم ، وكاد صاحبنا يجن حين علم ذلك ، فكان يصفق بيديه ويخالف بين رجليه ، وقفز إلى الشارع وهو يقول :

ـ سأقص عليكم غداً ما يكون فى هذا اليوم

كنا ننظر إليه نظر حسد ممض ، ننظر إليه نظر المحبوس فى غرفة مظلمة يؤدى عملاً شاقاً ، إلى رجل حر ، طليق ، يسرح ويمرح كما يحب ويختار

أما هو فطار كما يطير العصفور أفلت من القفص . . .

عاد فى اليوم الثانى إلى عمله بهندامه المألوف ، فاجتمعنا حوله نسأله باصرار عن سر الورقة « الحمراء » وعن أخبار النزهة فى « كاغد خانه » ، فلزم السكوت مع أنه هو الذى وعدنا بأن يقص علينا ما يجرى معه هناك ! كان لا يجيبنا إلا بقوله :

ـ لا شيء ، لا شيء . . .

ويبتسم ابتساماً يدل على أن لديه أشياء كثيرة ، لكنه يود إخفاءها عنا

فلما قطعنا الأمل من إفشائه سر الورقة وأخبار النزهة عاد كل منا إلى مكانه وأقبل على عمله

أخذت ألاحظه ملاحظة خفية فرأيته بين آونة وأخرى يستتر خلف دفتره الذى أمامه ويفتح محفظته ويلقى على مافيها نظرة تنم عن غبطة وسرور . ثم رأيت ورقة « زرقاء » بجانب « الحمراء » ، فقلت له وهو يلقى خلسة نظرته المعتادة على مافى محفظته :

ـ أراك تهيء نزهة أخرى فى « كاغدخانه » ؟

فأجابني ضاحكاً

ـ ربما . . .

بعد هذا الأسبوع أصبح رفيق ينتحل أسباباً يسمح له معها الرئيس بالتغيب أيام الجمع ، فكان يذهب إلى متنزه « كاغدخانه » يقضى أيام الآحاد والجمع هناك ، ولكنه خلافاً لعاداته لا يقص علينا أخبار نزهاته ورياضاته . كنت ألاحظه دائماً من حيث لا يشعر بى ، فرأيت محفظته قد امتلأت بالأوراق « البنفسجية والخضراء ، والصفراء » بجانب « الزرقاء ، والحمراء »

فقلت فى نفسى ، كأن رفيق يستعرض الألوان متخيراً ، وسنرى أى لون يختاره فى النهاية ويستقر عليه رأيه

وبعد مدة علمنا اللون الذى وقع عليه اختياره . . . .

جاءنا فى صباح يوم بادى القلق ظاهر الاضطراب ، فأخذ يذرع الغرفة جيئة وذهابا يحاول أن يتكلم ويفضى إلينا بشيء ولكنه لا يقدر ، ثم نظر إلى وجه كل واحد على حدة وقال :

ـ سأقول لكم شيئاً

حولنا جميعا أنظارنا إليه ، وكنت واثقاً أن ما سيقوله يتعلق بالأوراق الملونة التى فى محفظته فقال :

ـ سأتزوج . . .

فصعقنا لهذه الكلمة كأنها قنبلة سقطت علينا من السقف ، واستتلى فقال بكل جد :

ـ لقد سئمت هذه الحياة ، حياة الوحدة ، وعزمت على أن أستريح ، إن ملازمة غرف البيت والاشتغال بالعيال والأطفال خير من قضاء الليالى الطوال فى أماكن اللهو ومحال الفجور

فقلت له :

ـ إن مسألة الأطفال مسألة ثانية ، والمهم الآن أن نعرف من هم العيال ؟

فأجابنى بكل جد :

ـ إنها موافقة لى تمام الموافقة ، إنها ليست غنية ، وأنا لست من طلاب الغنى فى الزواج ، ستأتينى بثيابها فقط ، إن والدى ما زال يشكو من الوحدة بعد وفاة والدتى ، ويقول إن كل بيت يحتاج إلى امرأة ، فسأسبقه وأتزوج قبله ، هذا كل ما هنالك

فقلت له :

— لابد من صلة متينة بين هذا الزواج وبين الأوراق الملونة ؟

فلم يصدق ماقلت ولا أنكر ما ادعيت ، إنه سكت ، وكيف ينكر ما لا يقبل الانكار ؟

سمعنا هذا منه وسكتنا ، ولم يظهر بيننا من يخالفه فى رأيه الذى اعتزم عليه ، ولا من يقول له : إن الاقدام على الزواج مع مرتب ضئيل لا يتجاوز الأربعة دنانير كل شهر ، لا يدل على رأى حسن وفكر مستقيم ، وإن الزواج لو كان يترتب على كل رؤية يعقبها ميل لكان الزواج عبارة عن سلسلة لها أول وليس لها آخر

كان العقد وكان الزفاف ، وكانت الحفلات الشائقة التى نعمنا فيها بنعيم صديقنا . وبعد غياب أسبوع عاد إلى عمله وأول كلمة قالها هى :

ـ إنى سعيد . . .

نعم كان سعيداً . . . كنا نعرف ذلك من الطيش الذى أظهره باستدانته من هنا وهناك نقوداً أنفقها فى حفلات العرس . كنا نتحقق سعادته حينما نرى الصيارفة عند باب الدائرة فى أكثر الأحيان . . وحينما نراه يوم أخذ المرتب غارقاً يفكر وقلمه بيده يكتب أعدادا ويمحو أخرى . . .

لم نره مسروراً إلا أسبوعاً واحداً فقط

ثم جعلت ألاحظ أن خطوط الهم والتفكير أخذت تظهر على جبينه ، ولكنه مع ذلك كان بين آونة وأخرى يقول لنا :

ـ إننى سعيد . . .

كأنه يحاول بذلك أن يخدع نفسه ، أو كأنه يريد أن يخدعنا

سمعته فى أحد الأيام وقد أخذ الموظفون يستعدون للذهاب إلى منازلهم للغداء يقول :

ـ إنى اليوم أشعر بفتور فى جسمى لا أقدر معه على الذهاب إلى البيت للطعام ، لذلك سأبقى هنا وسأتناول شيئاً من الخبز والجبن

وفى اليوم الثانى أتى بعلبة صغيرة ووضعها فى درج مكتبه ثم أخرجها عند الظهر وقال :

ـ لقد رأيت أهل البيت يقددون لحماً فاشتهيت أن أجعل منه غدائى هذا اليوم

كأنه يريد أن يعتذر عن عدم ذهابه إلى البيت ليتناول فيه طعام الغداء على حسب العادة ، عند ذلك قوى عندى الشعور بسعادته وقلت :

ـ حقاً إنه جد سعيد . . .

أصبح بعد ذلك اليوم لا يخرج ظهراً إلى البيت لتناول طعام الغداء ، ولا يرى حاجة إلى الاعتذار عن ذلك إلى رفقائه ، وأصبح فى أكثر الأحيان يأكل الخبز والجبن لا يزيد عليهما ، وربما أتى معه من البيت بسمك محمر ، أو لحم مقدد ، قد صرَّ ذلك فى جريدة ، وربما عدل عن اللحم إلى البيض المسلوق

رأيته يوماً يفتح قماشاً فوق منضدته ويقلبه بين يديه ويتأمله مفكراً ، فلما وقع نظره على نظرى رفع قطعة القماش بيده وقال لى :

ـ ألا تعجبك هذه القطعة لمعطف نسائى ! إنها حقيرة فى نظرها لأن ثمنها ثلاثة دنانير !

لقد أقدم على شراء معطف بثلاثة دنانير مع أن مرتبه الشهرى أربعة فقط ! ومع هذا فهى ساخطة وتعدها حقيرة . . .

يا للغرابة ! . . لم أر من اللياقة أن أجيبه بما يجب ، فأرسلت زفرة من أعماق قلبى وقلت :

ـ انه سعيد وسعيد . . . !

فى اليوم الثانى أخذنا مرتباتنا ، وبينما كنا خارجين من الدائرة كان أحد الصيارفة فى انتظاره عند الباب فتعلق به وطالبه بنقوده صائحاً معربداً ، فدفعه عنه ، ولكن الصيرفى أخذ بتلابيبه ، ولم يرض أن يتركه حتى يدفع له كل ما عليه ، فتخلص منه بعد جهد ، وعاد الينا قائلاً كأنه بكلامه يريد أن يخفف وقع المنظر فى نفوسنا :

ـ يا له من وقح ! كأنى قد أنكرت ما له علىّ من دين ، فهو يطالبني بهذه الشدة !

فقلت فى نفسى :

ستدفع اليه ماله بلا شك ، وما الذى يقوله هذا النذل فيك إذا أنت لم تأخذ من المرتب إلا ثمن المعطف الذى قدمته للفتاة التى عبثت بلبك بوريقاتها الزاهيــــة ، وإلا نفقاتك البيتية والخصوصية ، ثم قدمت اليه الباقى جملة واحدة ؟!

كان يفقد نشاطه بالتدريج ، لقد حل مكان النشاط سكون وفتور ، أما اعتناؤه بزيه وهندامه فكان يقل شيئاً فشيئاً ، ولكنا مع ذلك كنا أحياناً نرى دبوسه الماسى فوق عقدة رقبته ، وخاتمه الزمردى فى أصبعه ، وسلسلة ساعته على صدره

أما الثياب فكان يقضى داخل الحلة الواحدة فصلاً كاملاً ، وكان لا يبدل قميصه إلا نادراً ، وظهر عليه انقباض ، فربما مرت عليه أيام لا يحرك شفته فيها بكلمة

كنا نشعر نحن أن وراء هذا التبدل ماوراءه من حياة بيتية مضطربة . . . . إلا أنه جاءنا يوماً على غير عادته فرحاً مستبشراً فقال لنا عند دخوله :

ـ هنئونى ، لقد رزقت اليوم فتاة

ثم نظر الى تقويم الأوقات وكتب فى دفتره :

١٥ آذار ١٣٠٠

هنأه كلهم بالمولود الجديد وأنا من جملتهم وقلت :

ـ ها قد جاء دور الأطفال بعد العيال

جاءنى بعد أسبوع وقال والحمرة تعلو وجهه :

ـ هل عندك دينار تقرضني إياه ؟

ثم أردف قائلاً من غير أن يترك مجالاً لرد طلبه :

ـ يجب عليّ أن أدفعه الى القابلة

لقد سمعت الدينار فى جيبى يزفر زفرة حرى . ولكن لم يكن فى استطاعتى أن أرد طلبه ، فأعطيته الدينار . ومن الغريب أنه منذ ذاك الحين أخذ يعاملنى معاملة باردة ، ويقابلنى بوجه جاف ، مع أنه لم يكن ثمة حاجة الى ذلك ، لأنى منذ ناولته « الدينار » نفضت يدى منه

لقد تغير حال رفيقنا وازداد اضطرابه بعد أن صار أباً . دخل يوماً الى الدائرة وهو يقول :

ـ ألا تسألون عما حلّ بى ؟

فأخذنا ننظر اليه بقلق وننتظر أن يذكر لنا ماحلّ به ، ففتح حينذاك ملفاً صغيراً بيده وأخرج منه علبة صغيرة سوداء فرفع غطاءها وأرانا إياها فاذا فيها :

ثدى صناعى . وقال :

ـ إن زوجتى لن ترضع ابنتها بعد الآن ، سنرضعها بالثدى الصناعى ، فهل تدرون لماذا ؟

حينذاك توقف عن إتمام كلامه كأنه كان يتردد بين أن يقول وبين أن يسكت ثم قال وهو خجل :

ـ لأنها حامل !

كان ينظر الينا باضطراب ، وكان منظره مؤلماً ومضحكاً معاً

رأيته يوماً عند طعام الظهر أخرج قطعة « كعك » وقطعة من جبن « القشقاوان » وأخذ يأكلها وهو يتمتم قائلاً :

ـ أنت تجوع وابنتك فى البيت تأكل مرق اللحم الدسم

أخـذت علائم الحزن ترتسم على محياه وتظهر بأجلى مظاهرها ، وبدت على وجهه معان مؤلمة حزينة لبعد عهده بالموسى ، وكان كثيراً مايكلم نفسه كالمجانين ، وكثيراً ما يشتغل بحسابه الخاص ـ حساب الدين ـ عن حساب الدائرة ، ويسافر بفكره الى أقصى حدود الخيال

عدنا يوماً من الغداء الى الدائرة فرأيناه يخيط بطانة معطفه ، ذلك المعطف الذى صحبه زمناً طويلاً ، فخجل منا وقال :

ـ إن زوجتى مريضة لذلك أنا أخيط ثيابى بيدى

إنه لم يقل الحقيقة لأنه ماكان يخيط بطانة معطفه المفتوقة ، بل كان يرفو بطانته التى تهلهل نسجها لطول الأيام

حينما ذكر لنا خبر ولادة المولود الثانى لم يكن فرحاً مستبشراً كما كان فى أول مرة بل قال :

ـ لقد رزقت اليوم غلاما

ثم نظر الى تقويم الأوقات وأخرج دفتره من جيبه وكتب فيه :

١٢ نيسان ١٣٠١

لم نره بعد ذلك شكا أو تبرم ، ولكنه كظم كل ذلك فى قلبه صابراً مستسلماً لقضاء الله وقدره . سعينا مع الرفاق عند رئيس الشركة لنزيد راتبه فلم نفلح ، وكان جواب الشركة :

ـ إن أولاد الموظفين ليسوا من صنع معاملها حتى تتكفل بهم . أربعة دنانير للزوجين وللولدين . . . . .

صار طعامه عند الظهر الخبز والجبن بصورة منتظمة ، ولم نعد نراه فى متنزه ولا متفرج ، وأنزل نوع تبغه الذى يدخنه درجة ثم درجات ، وأصبح كثير النظر فى أوراق الحساب ، وفى آخر أحد الشهور زاره الصيرفى الملح يطالبه بالدين فصاح به :

ـ لن أعطيك ، لن أعطيك شيئاً ، افعل ما تشاء

لقد كان قبل اليوم يكلمه سراً ، أما اليوم فهو يكلمه علناً ، لأنه لم يعد يخجل منا

جاءنا فى صباح أحد الأيام وبيده علبة فيها ثدى صناعى . فقلت له :

ـ ما هذا ؟

فقال :

ـ لا شىء

كأنه خجل أن يقول ما قاله أولاً ، وفى ذاك النهار لم يزاول عملاً ، ولكنه جعل رأسه بين يديه واسترسل فى أفكاره حتى المساء ، لا ينظر الى شىء ولا إلى أحد

ولاحت منى التفاتة اليه أحد الأيام فاذا هو ينظر الى تقويم الأوقات ثم يخرج دفتره من جيبه ؛ فقلت له :

ـ هل من قيد جديد لزائر جديد ؟

فأرسل نفساً قصيراً وكتب فى الدفتر :

١٠ مايس ١٣٠٢

ثم قال وهو ينظر إلى مبتسماً ابتسامة مؤلمة :

ـ لقد رزقت اليوم فتاة أخرى

كنت أنا أشعر من أعماق نفسى بألم من كثرة أولاد هذا الرفيق ، أما هو فكان يبكى من فرط تألمه ، فحول عينيه عنى وأقبل على عمله . أخرج يوماً ساعته من جيبه وفصل عنها سلسلتها الذهبية ولفها بورقة ، فقلت فى نفسى :

ـ لن نرى السلسلة الذهبية بعد الآن

إن رفيق لم يدفع ثمن القهوة فى هذا الشهر ، وأصبح منذ ذاك اليوم يشربها مرة واحدة فى النهار بدلاً من ثلاث مرات . ساءت حال الرجل واشتد به الضيق ، وظهرت ملابسه ملوثة ببقع الحبر ، واستحال لونها ، وتهلهل نسجها ووهى ، فكنت إذا رأيته على هذه الحال رثيت له وبكيت عليه . ولقد دخل علىّ يوماً وعليه حلة جديدة لم أرها عليه قبلاً ، ففرحت لذلك ، الا أن فرحى لم يطل ، فقد قال لى غير خجل منى :

ـ إنها قديمة ، ولكنى صبغتها فصارت جديدة

وبعد هذا الاعتراف أصبحنا صفيين ، وزال ما بيننا من الفتور الذى سببه « الدينار » واتخذنى كاتماً لأسراره ، يبثنى آلامه وأحزانه . لقد سرد علىّ تدريجاً كل آلامه فى الحياة . فذكر لى أولاً مبدأ صلته بزوجته وأساس هيامه بها ، وأن ذلك كان فى متنزه « كاغدخانه » ، وبسبب تلك الأوراق الملونة . . . وأنه كان يأمل أن ينعم بالأقتران بها ، إلا أنه لم ينعم بذلك إلا أسبوعاً واحداً وأتى بعد ذلك الشقاء ... ، ثم تجلت حياة البؤس من اجتماع فقره وفقرها ، فكان بينهما نزاع سببه عدم تمكنه من تأدية نفقاتها وطلباتها ... ثم الأولاد ...

وعاد الى زوجته فقال :

ـ إنها لما رأت نفسها محرومة مما تشتهى من ملبس ومأكل ومشرب أخذت تعامله معاملة قاسية لا تطاق ، ولكن ماذا يعمل هو إزاء ذلك ، وها هو لم يلبس بذلة جديدة منذ تزوج حتى الآن ، وأن ياقاته قد تمزقت فقلبها على قفاها لأنه لا يجد غيرها ولا يستطيع الوصول اليه ، على أنه قد عزم على أن يتخذها من مشمع كيلا تتمزق سريعاً ، وها إن ولديه الأثنين قد كبرا ، وهما فى حاجة الى ثياب والى أحذية لا يجدها

وكان بعد ذلك اليوم الذى نفض فيه جعبته أمامى ، يسمعني كل يوم فصلاً من فصول حياته المؤلمة . نظر إلى يوماً وهو يريني قماشاً أخذه لأبنته الكبرى وقال :

ـ سأقول لك شيئاً

ثم عاد وقال :

ـ لن أقول لأنك لا تصدق

إلا أنى عرفت ما يقصده حينما رأيت دفتره فى يده ونظره فى تقويم الأوقات ، لقد كتب فى دفتره :

٨ حزيران سنة ١٣٠٣

فقلت له :

ـ أطفل أيضاً ؟

قال : نعم غلام ، وقد أصبحوا أربعة

ثم قال وهو يبتسم :

ـ إنهم لا يخطئون نوبتهم : فتاة ثم غلام ، ثم فتاة ثم غلام ، وهكذا . .

كان يضحك ولكن كان قلبه يبكى . فقال لى فى نفس ذلك اليوم :

إن الدخان يؤثر فى صدره ويؤذيه ، وهو يرغب فى تركه لو يستطيع

أدركت ما يقصده المسكين من ترك الدخان ، فتألمت له كثيراً حتى كدت أبكى

رزق ولداً آخر ، فصار الأولاد خمسة ، وفى ذلك اليوم خرجت نفسه من يده ، فانه ما كاد يدخل الدائرة ويجلس إلى منضدته حتى أخرج دفتره وكتب فيه وهو ينشج نشيجاً يفتت الكبد ويصدع القلب : ٥ تموز ١٣٠٤

فقال بعض رفقائنا الجفاة ساخراً منه :

ـ ضع أرقاماً متسلسلة بجانب أولادك كيلا تنسى عددهم ...

كانت الخامسة فتاة على الترتيب المعتاد

بعد ذلك بقيت معه ثلاث سنين فى الوظيفة رأيته فيها ثلاث مرات يكتب فى دفتره

كتب فيه بجانب اسم فتاة وغلامين :

١٤ آب ١٣٠٥

٨ ايلول ١٣٠٦

١٤ تشرين الأول ١٣٠٧

[البقية على صفحة ٢٠٠٠]



الكتب

(الخطابة) : تأليف محمد أبو زهرة

(الأدب العربي فى آثار أعلامه) : وضع لجنة من أدباء لبنان

(نسمات الأصيل) : تأليف عبد العزيز رمضان وعبد الفتاح العشرى

(الثعابين) : تأليف الدكتور حسين فرج زين الدين

(ابنة اسبرطا) : تعريب محمد عبد الفتاح ابراهيم

(ظلال القمر) : نظم أحمد مخيمر

تدل هذه المجموعة من الكتب ، فضلاً عما تظهر من نشاط التأليف فى العالم العربى ، على بعض مظاهر الحركة الفكرية عندنا ، من حيث تشعبها واتجاهاتها ومقدار مادخل عليها من تطور فى طريقة عرض الآراء وبسطها وتوجيهها ، ومادخل على المشاعر من آثار التجديد

أما أولها فبحث قيم فى الخطابة وأصولها وتاريخها فى أزهر عصورها عند العرب ، اضطلع بوضعه الأستاذ محمد أبو زهرة أستاذ تاريخ الخطابة بكلية أصول الدين بالجامعة الأزهرية ، وهو كتاب كبير يقع فى نحو أربعمائة صفحة من القطع الكبير جعله مؤلفه قسمين ، فتناول فى القسم الأول أصول الخطابة ، فعرف هذا العلم وبين علاقته بالمنطق وعلم النفس وعلم الاجتماع ، ثم تكلم عن فائدة الخطابة وطرق تحصيلها وقواعدها كالايجاد والأدلة ومواضعها الذاتية والعرضية ، وآداب الخطيب وصفاته وما يتخللها من إثارة الأهواء والميول واستغلال العواطف ، وغير ذلك من أصول هذا العلم كالتنسيق وما يدخل فيه من مقدمة وإثبات ، ثم التعبير وحسن الأداء ومايصحبهما من موقف الخطيب وإشاراته وصوته ، ولم يفته أن يبين فى وضوح أنواع الخطب من سياسية ومن قضائية حتى الوعظ الدينى والمحاضرات العلمية والخطب العسكرية .. الخ وفى القسم الثانى تكلم عن تاريخ الخطابة فى العصر الجاهلى وصدر الاسلام ، وفى العصر الأموى وصدر العصر العباسى مع إيراد نماذج لكل من هاتيك العصور

فأنت ترى أنه بحث قيم جدير بالثناء ، كما ترى أنه موضوع طريف فى مسألة لها أهميتها وخصوصاً فى عصرنا هذا . عصر الرقى الاجتماعى والاتصال الفكرى ، عصر المجادلات السياسية والمناقشات البرلمانية والمحاضرات العلمية والوعظية فى المجتمعات والنوادى وفى الراديو وغيره

وإنى وإن كنت أشايع المؤلف الفاضل فى رأيه أن الخطابة ملكة وهبة طبيعية ، فانى أرى معه أيضاً أن الأصول والقواعد الفنية لابد منها حتى للموهوبين ، فما أبدع الجمع بين الاستعداد الفطرى والأوضاع الفنية ، هذا ولو لم يقتصر الأستاذ الفاضل على الخطابة عند العرب فتناول الخطابة عند أمم الغرب لكان موضوعه أتم ، وكانت فائدته أعم ، إذ تتسنى بذلك المقارنة . ولاشك أن ماطرأ على الأمم من تغيير فى نظم الاجتماع وطرق التفكير قد أدخل على الخطابة فى العصر الحاضر عناصر أخرى جديرة بالبحث ، والمؤلف كما يظهر من كتابه جدير بأن يفرد لها رسالة أخرى لا يتقيد فيها ببرنامج الدراسة وحدوده

* * *

وأما الكتاب الثانى فعبارة عن نصوص منتخبة من النظم والنثر وفقاً لمنهاج البكالوريا اللبنانية قام بوضعه الأساتذة واصف بارودى ، وفؤاد افرام البستانى ، وخليل تقى الدين ، وفى يدى الآن الجزء الأول منه ، ويشمل الجاهلية وعصر صدر الاسلام ، ويقع فى نيف ومائتى صفحة من القطع الكبير ، وقد طبع طبعاً أنيقاً فى بيروت ، اختار مؤلفوه الأفاضل من عصر الجاهلية شيئاً من أشعار امرىء القيس وطرفة بن العبد وزهير وعنترة والنابغة الذبيانى مع إيراد ترجمة قصيرة لكل منهم ، وبيان ظروف معلقته ، واختاروا من عصر صدر الاسلام للأخطل والفرزدق وجرير وعمر بن أبى ربيعة والحجاج بن يوسف وعبد الحميد الكاتب ،

على نحو ما فعلوا فى العصر الجاهلى مع الاشارة هنا إلى الدواوين أو المؤلفات

وقد يظن القارىء أن مثل هذا العمل قليل الخطر ، ولكن الواقع أنه من أدق الأعمال الأدبية ، فلاختيار يحتاج إلى توخى الفائدة وإلى التقيد بالذوق العام ، ومراعاة سن القارىء ودرجة استعداده ، ثم ملاحظة القطع المختارة ومقدار دلالتها على تفكير صاحبها ونوازعه فى الشعر والكتابة وما ينعكس فيها من أخلاقه وصفاته ، وهذا بلا شك يزيد فى قيمة النصوص ، فالنصوص كما لايخفى أمر لابد منه لدراسة الأدب وتذوقه ، وهى الخطوة السابقة للنقد بل الأساسية له . هذا وكثير من النصوص ماتزيد قيمته فى نفس الجمهور بحسب من اختارها لامن حيث هى فى ذاتها . فاذا كان من يختار سليم الذوق ضليعاً فى فنه ، جاءت مختاراته على قدر منزلته ، وهـــذه النصوص التى أحدثك عنها تدل على ذوق وفن عظيمين

***

ونجد ثالث تلك الكتب من نوع سابقه فهو عبارة عن مختارات من النظم والنثر ، غير أنه يختلف عنه فى طريقته ، فلم يُراع فيه ترتيب ولاتبويب ، كما لم ينظر فيه الى درس أو غاية فنية اللهم إلا الاستمتاع والغذاء العقلى الذى يستمد من الآثار الأدبية عامة أياكان شكلها أو موضوعها ، وإنك لتجد فيه المقالة المعربة الى جانب القطعة المختارة ، الى جانب الترجمة لشاعر أو كاتب ، الى قطع شعرية قديمة وحديثة متناثرة هنا وهناك دون أن تستطيع أن تعرف السر فى اختيارها ، اللهم إلا أنها قد أعجبت مختاريها ، وبينما تجد بعض القطع منسوبة الى أصحابها من أعلام الشعراء والكتاب تجد غيرها غفلا من كل اشارة ، وتكاد لاتساوى شيئاً فى معناها أو فى أسلوبها

لذلك يحق لى أن أعتب فى رفق على الأديبين المختارين عدم تنظيم كتابهما ، فان فيه كثيراً من التحف الأدبية لو أنها عرضت بطريقة منظمة لكان ذلك أجمل وأدعى الى الاستمتاع والانتفاع

***

أما كتاب الثعابين فهو بحث يتناول الثعابين عامة والأنواع المصرية منها خاصة ، قام بتأليفه أستاذ متخصص فى علم الحيوان هو الدكتور حسين فرج زين الدين ، وإن اختيار المؤلف الفاضل لهذا الموضوع الذى لم يسبقه اليه غيره فى اللغة العربيـة ، لدليل واضح يضاف الى كثير غيره من الأدلة على مجاراة المصريين غيرهم من أمم الغرب فى التخصص العلمى ، وتناول المسائل العلمية على أمثل الطرق ، والكتاب مملوء بالصور الدقيقة لأنواع الثعابين ، والمصرى منها خاصة ، ولن أجد فى وصفه أحسن مما قاله فى مقدمته الفريق الدكتور أمين باشا المعلوف « قرأت الكتاب من أوله الى آخره فوجدته مكتوباً بلغةعامية فصيحة ، وأسلوب علمى سهل المنال ، مما يثبت أن اللغة العربية غير قاصرة عن التعبير العلمى لمن أراده . هذا من جهة اللغة ، أما العلم فقد بحث المؤلف الثعابين بحثاً وافياً ولاسيما ما كان منها فى مصر وما جاورها وذكر أسماءها العربية الفصيحة والعامية ، وإذا لم يجد لها اسماً فصيحاً ذكر الأسم العامى . وبحث فى الحيات والانسان وأنواع الحيات وأشكالها بوجه عام ثم بحث فى تشريحها . . . الخ ثم بحث فى السم وأنواعه وأعراض التسمم والمصل فى علاج الملدوغين »

ونحن نتقدم بجزيل الثناء للدكتور المؤلف على مجهوده المحمود

***

وأقدم للقارىء بعدذلك تلك القصة المعربة وهى « ابنة استريا » وتقع فى جزءين ، ولقد نشرت تباعاً فى جريدة الاهرام ومعربها هو الأستاذ محمد عبد الفتاح ابراهيم ، أما مؤلفها فهو الروائى الانكليزى الذائع الصيت فيلبس اوبنهايم ، صاحب الروايات المحبوبة عند جمهور القراء فى الامبراطورية البريطانية ، وليس لدى الأصل الانجليزى حتى أستطيع أن أحكم على ماإذا كان التعريب جيداً ، غير أنى أجد فى جودة العبارة وسلامتها من الركاكة مايرجح عندى هذا ، أما موضوع القصة فموضوع غرامى ساحر ملىء بكثير من المواقف المدهشة والأوصاف الساحرة . « كتبه اوبنهايم بعد أن زار جزيرة (استريا) وسط المحيط الجنوبى وسمع القصة بأذنيه »

يبقى الكتاب الأخير «ظلال القمر» وهو ديوان صغير الحجم يقع فى نحو تسعين صفحة للأديب أحمد مخيمر، مطبوع طبعاً أنيقاً على ورق جيد، ومحلى بعدة صور ريفية بديعة. وتدور معظم قصائده على وصف المناظر الريفية، وهى نزعة أحمدها للشاعر الفاضل فلقد تناول البيئة المصرية المحبوبة، ولم يجر كغيره وراء أخيلة وصور لاتمت الينا بصلة، ولذلك تلمس فى شعره الروح القروية الرقيقة. وكثير من قصائده فى القمر والحقول يقنعك بأن الشاعر لايعرف التكلف، وحبذا لو اتجه شعراؤنا الى الريف المصرى فوصفوا جماله واستلهموا سحره، واستوحوا صفاءه وبهجته. ولكني إذ أغتبط بنزعة الشاعر من حيث الموضوع أقرر مع الأسف أنه كثيراً مايسف فى شعره إسفافاً قد يقربه به من الابتذال، ولكنه يسمو أحياناً سمواً يبشر بأنه مع الصبر والتجويد قد يأتى فى المستقبل بما يجعل منه شاعراً مصرى الروح والعاطفة؟

الخفيف

الزواج المبارك

[بقية المنشور على صفحة ١٩٩٧]

كأن الدهر كان يريد مداعبة هذا الرجل الفقير المسكين فهو يقذفه مصراً فى كل سنتين بفتاة وغلام . . .

لقد خلت محفظته من الأوراق «الملونة» بعد أن كانت تغص بها، ولم يبق فيها غير دفتر صغير فيه صحيفة كاملة لتواريخ أولاده بعد أن قيد تاريخ ولادة الولد الثامن . . . ألقى نظرة فاحصة على الصحيفة من أولها إلى آخرها ثم جاء إلينا وقال :

– تعالوا لأريكم اتفاقاً غريباً

فاجتمعنا حوله فقال :

اقرأوا من أعلى الصحيفة حتى أسفلها

فقرأنا فاذا فيها :

آذار، نيسان، مايس، حزيران، تموز، آب، ايلول، تشرين الأول

ثم أخذ يشرح لنا مكان الغرابة فى ذلك فقال :

– انظروا إن بين كل ولد من أولادى ورفيقه ثلاثة عشر شهراً لاتزيد، لذلك كانت شهور ولادتهم متعاقبة لا فاصل بينها

فقال أحدنا مستهزئاً أيضاً :

– الآن جاء صاحب تشرين الأول ! وسيأتيك أربع آخرون حتى شباط. وفيه تنتهى المجموعة ويكمل عددهم «اثني عشر»

لقد مضى على خروجى من خدمة الشركة أربع سنوات لم أر خلالها هذا الرفيق القديم، فلما رأيته اليوم سألته عن حاله فاذا «سيل» الأولاد لايزال كما كان. وعلى ذلك فان «شباط» قد وضع «هديته» وتمت المجموعة التى بُشر بها، مع أن المسكين لا يزال يلبس الثياب التى كانت عليه منذ أربع سنين، وربما كان مرتبه لا يزال «أربعة دنانير»

***

هنا انتهت القصة التى رواها رفيق فودعته وركبت الترام إلى بيتى، وأنا أفكر فى ذلك الرجل المسكين وسوء طالعه، وأستنزل الرحمة والرضوان على جدث دفين معرة النعمان

حلب **فتاة الفرات**